

الطيب صالح

موسم
الهجرة
إلى
الشمال

الطبعة الثالثة عشر

صمم الغلاف الفنان : موسى طيبة

الطَّيِّبُ صَالِحٌ

«مَوْسَمُ الْهَجْرَةِ إِلَى الشَّامِ»

دَارُ الْعُودَةِ - بَيْرُوتَ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة عشر

١٩٨١

الطبعة الرابعة عشر

١٩٨٧

دار العودة - بيروت

كورنيش المزرعة - بناية الريفيرا سنتر

هاتف ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

ص. ب. : ١٤٦٢٨٤ بيروت

تلكس MEREBI 23682 LE

عدت الى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة ، سبعة اعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم في أوروبا . تعلمت الكثير ، وغاب عني الكثير ، لكن تلك قصة أخرى . المهم انني عدت وبي شوق عظيم الى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل . سبعة أعوام وأنا أحسن اليهم وأحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة ان وجدتني حقيقة قائما بينهم ، فرحوا بي وضجوا حولي ، ولم يمض وقت طويل حتى احسست كأن ثلجا يذوب في دخليتي ، فكأنني مقرر طلعت عليه الشمس . ذاك دفء الحياة في العشيرة ، فقدته زمانا في بلاد غوت من البرد حيتانها . تعودت أذناي أصواتهم ، وألفت عينايا أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة ، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب ، اول رهلة رأيتهم . لكن الضباب راح ، وأستيقظت ثاني يوم وصولي ، في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخيت أذني للريح . ذاك لعمرى صوت أعرفه ، له في

بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهي تمر بالنخل غيره وهي
تمر بحقول القمح . وسمعت هديل القمرى ، ونظرت خلال
النافذة الى النخلة القائمة في فناء دارنا ، فعلمت ان الحياة لا
تزال بخير ، أنظر الى جذعها القوي المعتدل ، والى عروقها
الضاربة في الارض ، والى الجريد الاخضر المنهدل فوق هامتها
فأحس بالطعانة . أحس انني لست ريشة في مهب الريح ،
ولكني مثل تلك النخلة ، مخلوق له أصل ، له جذور له هدف .
وجاءت أمي تحمل الشاي . وفرغ أبي من صلاته وأوراده
فجاء . وجاءت أخوتي ، وجاء اخواي ، وجلسنا نشرب الشاي
وتحدث ، شائنا منذ تفتحت عيناى على الحياة . نعم ،
الحياة طيبة ، والدنيا كحالها لم تتغير .

فجأة تذكرت وجهها رأيته بين المستقبلين لم أعرفه . سألتهم
عنه ، ووصفته لهم . رجل ربعة القامة ، فى نحو الخمسين أو
يزيد قليلا ، شعر رأسه كثيف مبيض ، ليست له لحية وشاربه
أصفر قليلا من شوارب الرجال فى البلد . رجل وسيم .

وقال أبى : « هذا مصطفى »

مصطفى من ؟ هل هو أحد المغتربين من أبناء البلد عاد ؟

وقال أبى ان مصطفى ليس من أهل البلد ، لكنه غريب
جاء منذ خمسة أعوام ، اشتري مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنت
محمود .. رجل فى حاله ، لا يعلمون عنه الكثير .

لا أعلم تماما ماذا أثار فضولي ، لكنني تذكرت أنه يوم

وصولي كان صامناً . كل أحد سألني وسألته . سألوني عن أوروبا . هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالبية أم رخيصة؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون ان النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ودريس: هل صحيح انهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي . دهشوا حين قلت لهم ان الاوربيين ، اذا استثنينا فوارق ضئيلة ، مثلنا تماماً ، يتزوجون ويربون اولادهم حسب التقاليد والاصول ، ولهم أخلاق حسنة ، وهم عموماً قوم طيبون .

وسألني محجوب . هل بينهم مزارعون؟

وقلت له : نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماماً . وآثرت ألا أقول بقية ما خطر على بالي : « مثلنا تماماً . يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحملون أحلاماً بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من الجهول ، ويلتشدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد . فيهم أقوياء ، وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحياة . لكن الفروق تضيق وأغلب الضمفاء لم يعودوا ضعفاء » . لم أتل لمحجوب هذا ، وليتني قلت ، فقد كان ذكياً . خفت ، من غروري ، ألا يفهم .

وقالت بنت مجذوب ضاحكة : « خفتنا أن تعود إلينا
بنصرانية غلفاء » .

لكن مصطفى لم يقل شيئاً . ظل يستمع في صمت ،
يبتسم أحياناً ، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة ،
مثل شخص يتحدث نفسه .

نسيت مصطفى بعد ذلك ، فقد بدأت أعيد صلتى بالناس
والأشياء في القرية . كنت سعيداً تلك الأيام ، كطفل يرى
وجهه في المرآة لأول مرة . وكانت أمي لي بالمرصاد ، تذكرني
بمن مات ، لأذهب وأعزي ، وتذكرني بمن تزوج ، لأذهب
وأهني . جيت البلد طويلاً وعرضاً معزياً ومهنثاً . ويوماً
ذهبت إلى مكاني الأثير ، عند جذع شجرة طلع على ضفة
النهر . كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك
الشجرة ، أرمي الحجارة في النهر وأحلم ، ويشرد خيالي في
الأفق البعيد ؟ أسمع أنين السواقي على النهر ، وتصايح الناس
في الحقول ، وخوار ثور أو نهيق حمار . كان الحظ يسعدني
أحياناً ، فتمر الباخرة أمامي صاعدة أو نازلة . من مكاني
تحت الشجرة ، رأيت البلد يتغير في ببطء . راحت السواقي .
وقامت على ضفة النيل طلبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدي
عمل مائة ساقية . ورأيت الضفة تنقهق عاماً بعد عام أمام
لطمات الماء ، وفي جانب آخر يتقهقر الماء أمامها . وكانت
تخطر في ذهني أحياناً أفكار غريبة . كنت أفكر ، وأنا أرى

الشاطيء يضيق في مكان ، ويتسع في مكان ، أن ذلك شأن الحياة ، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى . لكن لعلي أدركت ذلك فيما بعد . أنا الآن ، على أي حال ، أدرك هذه الحكمة ، لكن بذهني فقط ، إذ أن عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل . انني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة ، أريد أن أعطي بسخاء ، أريد أن بفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر . ثمة آفاق كثيرة لا بد أن تزار ، ثمة ثمار يجب أن تُقطف ، كنب كثيرة تقرأ ، وصناعات بيضاء في سجل العمر ، سأكتب فيها جلا واضحة بخط جريء . وأنظر إلى النهر بدأ ماؤه يربد بالطمي - لا بد أن المطر هطل في هضاب الحبشة - وإلى الرجال قاماتهم متكئة على المحاربت ، أو منحنية على المعاول . وقتلي عينايا بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائراً يغرد ، أو كلباً ينبع ، أو صوت فأس في الحطب - وأحس بالاستقرار . أحس انني مهم ، وانني مستمر ، ومتكامل . لا .. لست أنا الحجر يلقى في الماء ، لكنني البذرة تبذر في الحقل . وأذهب إلى جدي ، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً ، قبل خمسين عاماً ، لا بل ثمانين ، فيقوى إحساسي بالأمن . كنت أحب جدي ، ويبدو أنه كان يؤثرني . ولعل أحد أسباب صداقتي معه ، انني كنت منذ صغري تشغذ خيالي حكايات الماضي ، وكان جدي يحب أن يحكي ، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتني . وكنت حين

يلم بي الحنين إلى أهلي ، أراه في منامي . قلت له ذلك ، فضحك وقال : « حدثني عراف وأنا شاب ، انني إذا جاوزت عمر النبوة - يعني الستين - فاني سأصل المائة . » وحسبنا عمره ، أنا وهو فوجدنا انه بقي له نحو اثني عشر عاما .

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم ، حكم ذلك الاقليم أيام الأتراك . ولست أعلم ما الذي دفع بمصطفى إلى ذهني ، لكنني تذكرته بفتة ، فقلت أسأل عنه جدي ، فهو عليم بحسب كل أحد في البلد ونسبه ، بل باحساب وأنساب مبعثرة قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . لكن جدي هز رأسه وقال انه لا يعلم عنه سوى انه من نواحي الخرطوم ، وانه جاء الى البلد منذ نحو خمسة أعوام ، واشترى أرضاً تفرق وارثوها ، ولم تبق منهم إلا امرأة . فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها . ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته . قلت لجدي : « أي بناته ؟ » فقال : « أظنها حسنة . » وهز جدي رأسه وقال : « تلك القبيلة . لا يباليون لمن يزرجون بناتهم . » لكنه أردف ، كأنه يعتذر ، ان مصطفى طول إقامته في البلد ، لم يبدو منه شيء منفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام ، وانه يسارع « بذراعه وقدمه » في الأفراح والأفراح . .. هكذا طريقة جدي في الكلام .

* * *

بعد هذا بيومين ، كنت وحدي أقرأ وقت القيلولة .

كانت أمي وأختي ثلغتان مع بعض النسوة في أقصى البيت ،
وكان أبي ثامناً ، وقد خرج أخوأي لشأن ما ، فخلوت بنفسي .
سمعت لمنحة خارج البيت ، فقامت ، فإذا هو مصطفى ،
يحمل بطيخة كبيرة ، وزنبيلاً مملوءاً برتقالاً . ولعله رأى
الدهشة على وجهي ، فقال : « أرجو ألا أكون أيقظتك من
نوم . لكنني قلت أجيئك بعينة من ثمر الحقل ، تذوقه .
كذلك أحب أن أتعرف إليك . وقت الظهيرة ليس وقت
زيارة . اعذرني » .

لم يغب عني أدبه الجم ، فأهل بلدنا لا يبالغون بعبارات
المجاملة . يدخلون في الموضوع دفعة واحدة ، يزوروك ظهراً
كان أو عصرأ ، لا يهمهم أن يقدموا ابعاذير . رددت الود
بالود ، ثم جيء بالشاي .

دقت انظر في وجهه ، وهو مطرق . انه رجل وسم
دون شك ، جبهته عريضة رحبة ، وحاجباه متباعداً ،
يقومان أهلة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزيز الأسيب
متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه ، وانفه حاد منحاراه مليشان
بالشمر . ولما رفع وجهه أثناء الحديث ، نظرت إلى فمه
وعينيه ، فأحسست بالزيج الغريب من القوة والضعف في وجه
الرجل . كان فمه رخوأ ، وكانت عيناه ناعستين ، تجعلان وجهه
أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة . ويتحدث بهدوء ، لكن
صوته واضح قاطع . حين يسكن وجهه بقوى . وحين يضحك

يغلب الضعف على القوة . ونظرت إلى ذراعيه ، فكأنتا قويتين ، عروقها ثافرة ، لكن أصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر إليها بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي .

قلت أدعه يتحدث ، فهو ميجيء إلي في حمأة القيظ ، إلا ليقول لي شيئاً . ولعله من ناحية أخرى جاء بوازع من حسن النية . لكنه قطع علي حذمي . فقال : « لعلك الوحيد من أهل البلد ، الذي لم أسعد بالتعرف عليه من قبل » . لماذا لا يترك هذا الأدب ، ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال ، قال بعضهم لبعض : يا ابن الكلب .

« سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك » - لا غرو ، فقد كنت أعد نفسي زينة الشاب في البلد .

« قلوا انك نلت شهادة كبيرة - ماذا تسمونها ؟ اداكتوراه ؟ » يقول لي ماذا تسمونها؟ لم يعجبني ذلك ، فقد كنت أحسب أن الملايين العشرة في القطر كلهم سمعو بانتصاري . « يقولون انك لامع منذ صغرك » .

« العفو » هكذا قلت ، لكنني ، والحق يقال ، كنت تلك الايام مزهواً بنفسي ، حسن الطن بها . « اداكتوراه » هذا شيء كبير .

فقلت له ، وأنا أتصنع التواضع ، ان الامر لا يعدو أنني قضيت ثلاثة أعوام ، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء

الانكليز . واغتظت ، لا اخفي عليكم انني اغتظت ، حين
ضحك الرجل ملء وجهه ، وقال :

« نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر . لو انك درست علم
الزراعة أو الهندسة أو الطب ، لكان خيراً » . انظر كيف
يقول « نحن » ولا يشملني بها ، مع العلم بأن البلد بلدي ، وهو
- لا أنا - الغريب .

لكنه ابتسم في وجهي برقة ، ولاحظت كيف طفى
الضعف في وجهه على القوة ، وكيف أن عينيه في الواقع
جبلتان كعيني انثى ، وقال :

« لكن نحن مزارعون نفكر فيما يعيننا ، انما العلم ، مهما
كان ، ضروري لرفعة الوطن » .

صمت برهة ، فازدحت اسئلة كثيرة في رأسي : من أين
هو ؟ ولماذا استقر في هذا البلد ؟ وما هي قصته ؟ لكنني
آثرت التريث ، واسعفني هو فقال :

« الحياة في هذا البلد هينة خيرة . الناس طيبون عشرتهم
سهلة » .

فقلت له : « انهم يذكرونك بالخير . جدي يقول انك
رجل فاضل » .

صحك حينئذ ، ربما لانه تذكر مقابلة له مع جدي ، وبدأ
كأنه سر من قولي ، وقال :

« جدك .. ذاك رجل . ذاك رجل .. تسمون عاملاً وقامته
منتصبة ، ونظره حاد ، وكل سن في فمه . يقفز فوق الحمار

خفياً ، ويمشي من بيته المسجد في الفجر . هاه ذاك رجل .
كان غلصاً وهو يقول هذا . ولم لا ؟ وجدي ، في واقع
الامر ، اعجوبة .

وخفت ان يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئاً - الى هذا
الحد بلغ فضولي - فجرى السؤال عني لساني قبل أن افكر :
« هل صحيح انك من الخرطوم ؟ » .

وفوجئ الرجل قليلاً وخيل لي ان ما بين عيني قد
تعكر ، لكنه بسرعة ومهارة عاد الى هدوئه ، قال لي وهو
يتعمد أن يبتسم : « من ضواحي الخرطوم في الواقع . قل الخرطوم » .
وصمت برهة قصيرة ، وكأنه يناقش بيده وبين نفسه ، هل
بصمت أم يعطيني المزيد ثم رأيت الطيف الساحر يحوم حول
عيني ، تماماً كما رأيته أول يوم ، وقال وهو ينظر اليّ وجمّاً
قبالة وجهه :

« كنت في الخرطوم أعمل في التجارة . ثم لأسباب عديدة ،
قررت ان اتحول للزراعة . كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار
في هذا الجزء من القطر ، لا أعلم السبب . وركبت الباخرة ،
وأنا لا أعلم وحق . ولما رست في هذا البلد ، أعجبتني هيئتها .
ومجس هاجس في قلبي : هذا هو المكان وهكذا كان ، كما
ترى . لم يحب ظني في البلد ولا أهله » . ثم صمت ، وقام قائلاً
انه ذاهب للحقل ، ودعاني للعشاء في بيته بعد يومين .

ولما أوصلته للباب ، قال لي وهو يودعني ، والطيف
الساحر اكثر وضوحاً حول عيني :

« جديك يعرف السر » .

ولم يهلني حق أسأله : « أي سر يعرفه جدي ؟ جدي

ايست له أسرار ، . ولكنه مضى مبتعداً بخطوات نشيطة
متحفرة ، رأسه يميل قليلاً الى اليسار .

* * *

ذهبت للعشاء فوجدت محجوباً ، والعمدة ، وسعيد التاجر ،
وأبي . تمشينا دون ان يقول مصطفى شيئاً يشير الاهتمام . كان
كعادته يسمع أكثر مما يتكلم . كنت ، حين يخفت الحديث
وحين أجد أنه لا يعنيني كثيراً ، أتلقت حولي كأنني أحاول
ان أجد في غرف البيت وجدوانه الجواب على الاسئلة التي
تدور في رأسي . لكنه كان بيتاً عادياً ، ليس أحسن ولا
أسوأ من بيوت الميسورين في البلد . منقسم الى جزئين كبقية
البيوت ، حزه للنساء ، والقسم الذي فيه ، الديوان ، الرجال
ورأيت الى يمين الديوان غرفة من الطوب الاحمر ، مستطيلة
الشكل ، ذات نوافذ خضراء . سقما لم يكن مسطحاً كالعادة
ولكنه كان مثلثاً كظهر الثور .

قمنا أنا ومحجوب وتركنا الباقيين . وفي الطريق سألت
محجوباً عن مصطفى . لم يخبرني بحديثه لكنه قال : « مصطفى
رجل عميق » .

قضيت في البلد شهرين ، كنت خلالها سعيداً . وقد
جمعتني الصدفة بمصطفى عدة مرات . مرة دعيت لحضور
اجتماع لجنة المشروع الزراعي . دعاني محجوب ، رئيس اللجنة
وقد كان صديقي ، نشأنا معاً منذ طفولتنا . دخلت عليهم

وكان مصطفى بينهم ، وكانوا يبحثون أمراً يتعلق بتوزيع الماء على الحقول . ويدعو أن بعض الناس ، ومنهم من هو عضو في اللجنة ، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم . وأحتد القدرش وتصايحوا بعضهم على بعض وفحاة رأييت مصطفى يهب واقفاً . هذا اللمط واستمعوا اليه باحترام زائد . وقال مصطفى ان الخضوع للنظام في مشروع أمر مهم ولا أختلطت لأمور ومادات تفوضي ، وان على أعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فاذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس . ولما فرغ من كلامه هز أغلب أعضاء اللجنة رؤوسهم استحياساً ، وصمت من عنانهم الكلام . لم يكن ثمة أدنى شك في ان الرجل من عجينة أخرى ، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة ، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه .

* * *

بعد هذا بنحو أسبوع ، حدث شيء أذهلني . دعاني محجوب لمجلس شراب . وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوباً في شأن من شؤون المشروع . دعاه محجوب ان يجلس فاعتذر ، ولكن محجوباً حلف عليه بالطلاق . مرة أخرى لاحظت سحابة البهرم تسعد ما بين عينييه ، ولكنه جلس ، وعاد بسرعة الى هدوئه الطبيعي . وناولته محجوب كأساً من الشراب ، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها الى حانته

دون ن يشرب منها . ومرة أخرى أقسم محجوب ، فشرب مصطفى . كنت أعرف محجوبا متهوراً ، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل ، اد من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلاً . لكن خاطراً آخر هجس في ذهني ، فتوقفت . شرب مصطفى الكأس الأولى باشمئزاز واضح ، شربها بسرعة ، كأنها دواء مقيت . لكنه لما وصل الى الكأس الثالثة ، أخذ يبطئ . ويمص اشراب مصاً ، بلذة . حينئذ ارتخت عضلات وجهه ، وغاب التوتر في أركان فمه ، وأصبحت عيناه حالتين ناعستين ، أكثر من ذي قبل . انقوة التي تحسها في رأسه وحنهته وأنفه ، ضاعت تماماً في لضعف الذي سال ، مع الشرب ، على عينيه وفمه . وشرب مصطفى كأساً رابعة ، وكأساً خامسة . لم يعد في حاجة إلى تشجيع ، لكن محجوباً كان يحلف بالطلاق عى أي حال . دفن مصطفى قامته في المقعد ، ومدد رجله . وأمسك الكأس بكليتا يديه ، ومرحت عيناه ، كما خيل لي ، في أفق بعيدة ، ثم ، فجأة ، سمعته يتلو شعراً إنكليزياً ، بصوت واضح ونطق سليم . قرأ قصيدة وجدت فيها بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى :

« هؤلاء نساء فلاندرز

ينتظرون الضائعين ،

ينتظرون الصائمين الذين أبداً لن يفادروا الميناء ،

ينتظرون الضائمين الذين أبداً لن يحيي بهم انقطار ،

إلى أحضان هؤلاء النسوة ، ذرات الوجوه الميتة ،
ينتظرون الضائعين ، الذين يرقدون موتى في الخندق
والحاجز والطين في ظلام الليل .
هذه محطة تشارنغ كروس . الساعة حاورت الواحدة .
ثمة ضوء ضئيل
ثمة ألم عظيم .

بعد ذلك تأوره ، وهو لا يزال ممكاً بالكأس بين يديه ،
وعيناه سارحتان ، في آفاق داخل نفسه .

أقول لكم ، لو أن عفرتنا شقت عمه الأرض وبقاة ،
ووقف أمامي ، عيانه تفقدحان اللهم ، لما دعرت أكثر مما
دعرت . وخامرني ، بغتة ، شعور فظيع ، شيء مثل
الكابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم
نكن حقيقة ، إننا وهما من الأوهام . وقفزت ، ووقفت فوق
الرجل ، وصحت فيه . « ما هذا الذي تقول ؟ ما هذا الذي
تقول ؟ » نظر إلي نظرة جامدة ، لا أدري كيف أصمها ،
لكر لعلها كانت حليطاً من الاحتقار والضيق . ودفعني بعنف
بيده ، ثم هب واقفاً ، وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة ،
مرفوع الرأس ، كأنه شيء ميكانيكي كان محجوب مشغولاً ،
يضحك مع بقية من في المجلس ، فلم ينتبه لما حدث .

ذهبت إليه ثاني يوم في حقله ، فوجدته مكماً بحفر الأرض
حول شجرة ليمون . كان مرتدياً سروالاً من الكاكي قصيراً

متسخاً ، وقميصاً من الدبلان يصل إلى ركبتيه ، وعلى وجهه
بقع من الطين . حباتي بأدبه الحم كعادته وقال لي : « بعض
فروع هذه الشجرة تثمر ليموناً ، وبعضها يثمر برتقالاً » .
فقلت له ، الانجليزي ، عمداً : « شيء مدهش » . فنظر إلي
مستغرباً وقال : « ماذا ؟ » فأعدت الجملة . ضحك وقال لي :
« هل أنتك إقامتك الطويلة في إنجلترا العربي ، أم تحسب
ننا خواجهات ؟ » قلت له : « لكنك ليلة أمس قرأت الشعر
باللغة الانجليزية » .

غاضبي صمته . فقلت له : « من الرضح انك شخص آخر
غير ما تزعم . من الخير أن تقول لي الحقيقة » . لم يد عليه
أي تأثر بالتهديد اندي ضمنته كلامي ، ومضى بحفر حـول
الشجرة . ولما فرغ من حمره ، قال وهو يعض الطين عن
يديه دون أن ينظر إلي :

« لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت في الليلة الماضية .
السكران لا يؤخذ على كلامه . إذا كنت قلت شيئاً ، فهو
كخترقة النائم ، أو هذيان المموم . لبت له قيمة . أنا هو
هذا الشخص الذي أمامك ، كما تعرفه كل أحد في البلد . لست
خلاف ذلك ، وليس عندي شيء أخفيه » .

ذهبت إلى البيت ، ورأسي يضحج بالأفكار . أنا وثق ان
وراء « مصطفى » قصة ، أو شيئاً لا يود أن يبوح به . هل
خانتني أذناي ليلة البارحة ؟ الشعر الانجليزي الذي قرأه ،

كان حقيقة . لم أكر سكران ، ولم أكر بانغا ، وصورته
وهو جالس في ذلك المقعد ، بمد أرجليه ، ممسكاً بالكأس
بكلتا يديه ، صورة واضحة لا مرد فيها . هل أحدث أبي ؟
هل أقول للحجوب ؟ لعل لرجل قفس أحداً في مكان ما وفر
من السجن ؟ لعله . . لكن أية أسرار في هذا البلد ؟ لعله فقد
ذاكرته ؟ يقال أن بعض الناس يصابون « بالامنيزيا » أثر
حادث . وأخيراً قررت أن أمهد يومين أو ثلاثة ، فإذا لم
يأتني بالحقيقة ، كان لي معه شأن آخر .

لم يطل انتظارى ، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم .
وجد أبي وأخوي أيضاً ، فقال أنه يريد أن يتحدثني على انفراد .
قمت معه ، فقال لي : « هل تحضر إلى بيتي مساء غد ؟ أريد
أن أتحدث إليك » . ولما عدت سألتني أبي : « ماذا يريد
مصطفى ؟ » فقلت له أنه يريدني أن أفسر له عقداً بملكية
أرض له في الخرطوم .

رحت إليه عند المغيب ، فوجدته وحده ، أمامه آنية
شاي . عرض علي الشاي فأبيت ، فقد كنت في الحقيقة
أتمجّل سماع القصة . لا بد أنه قرر أن يقول الحقيقة . أعطاني
سيجارة فقبلتها .

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء ، فبدأ هادئاً
قوياً . أبعدت المكرة ، وأنا أدظر في وجهه ، أنت يكون
قاتلاً . إنعمال العنف يترك أثراً في الوجه لا تخطئه العين .

أما أنه فقد ذاكرته ، فهذا محتمل . وأخيراً بدأ مصطفى يتحدث ، ورأيت الطيف الساخر حول عينيهِ أوضح من أي وقت رأيته فيه . شيء محسوس ، كأنه لمع البرق .

« سأقول لك كلاماً لم أقله لأحد من قبل . لم أجد سبباً لذلك قبل الآن . قررت هذا حتى لا يجمع خيالك ، وأنت درست الشعر ، صعبك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا .

« خفت أن تذهب وتحدث إلى الآخرين . تقول لهم أنني لست الرجل الذي أرعم . فيحدث . . يحدث بعض الحرج ، لي وهم . لذا فإن لي عندك رجاء وهدأ . أن تعدني بشرفك ، أن تقسم لي بأهلك لن تبوح لحقوق بشيء مما سأحدثك به الليلة . ونظر إلي نظرة مركزة . فقلت له :

« هذا يعتمد على ما ستقوله لي . كيف أعذك وأنا لا أعلم عنك شيئاً ؟ » .

فقال : « انني أقسم لك بأن شيئاً مما سأقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذا البلد . انني رجل في كامل عقلي ، مسلم ، لا أحب لهذا البلد وأهله إلا الخير » .

لا أكتفك أنني ترددت . لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات ، وكان فضولي عارماً ليس له حد . خلاصة القول أنني وعدت وأقسمت ، فدفع مصطفى إلي برزمة أوراق وأوماً لي أن أنظر فيها فتحت ورقة ودا هي وثيقة ميلاده .

مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، ١٦ أغسطس عام ١٨٩٨ ... الأب متوفي ، الأم فاضلة عبد الصادق ، فتحت بعد ذلك جواز سفره ، الاسم ، المولد ، البلد ، كما في شهادة الميلاد . المهنة « طالب » . تاريخ صدور الجواز عام ١٩١٦ في القاهرة وجدد في لندن عام ١٩٢٦ . كان ثمة جواز سفر آخر ، انكليزي ، صدر في لندن عام ١٩٢٩ . قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة ، فرنسية وألمانية وصينية وبنمالية . كل هذا شحذ خيالي بشكل لا يوصف ، فلم أستطع المضي في قلب صفحات جواز السفر ، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق . ولا بد أن رجعت كان مشحوناً بالترقب حين نظرت إليه . مضى مصطفى بنفث في دخان سيجارته برهة ، ثم قال :

نها قصة طويلة . لكنني لن أقول لك كل شيء . وبعض التفاصيل لن تهملك كثيراً ، وبمضها ... المهم انني كما ترى ولدت في الخرطوم . نشأت بدياً ، فقد مات ابي قبل أن أولد ببضعة أشهر ، لكنه ترك لنا ما يستر الحل . كان يعمل في تجارة الجمال . لم يكن لي أخوة ، فلم تكن الحياة عسيرة عليّ وعلى أمي . حين أرجع الآن بذاكرتي ، أراها بوضوح ، شفتها لرقيقتان مصبقتان في حزم ، وعلى رجليها شيء مثل القناع . لا أدري قناع كثيف ، كأن وجهها صفحة بحر ، هل تفهم ؟ ليس له لون واحد بل ألوان متعددة ، تظهر وتغيب وتتهرج . لم يكن لها أهل . كنا ، أنا وهي ، أهلاً بعضنا لبعض . كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق . لعاني كنت مخلوقاً غريباً . أو لعل أمي كانت غريبة . لا أدري . لم نكن نتحدث كثيراً ، وكنت ، ولعلك تمجّب ، أحس حساساً دافئاً بأنني حر ، بأنه ليس ثمة مخلوق أب أو أم ، يربطني كالوقد الى بقعة معينة ومحيط معين . كنت

أقرأ وانام ، أخرج وأدخل ، العب خارج البيت ، أتسكع في الشوارع ، ليس ثمة أحد يأمرني أو ينهاني . الا أنني منذ صغري ، كنت أحس بأنني ... انني مختلف . أقصد انني لست كبقية الاطفال في سني ، لا أثار بشيء لا أيكبي اذا ضربت ، لا أفرح ذا أثني عليّ . لمدرس في الفصل ، لا أنام لما يتألم له الباقون . كنت مثل شيء مكور من المطاط ، تلقيه في الماء فلا يستل ، ترميه على الارض فيقف . كان ذلك الوقت أول عهدنا بالمدارس أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين فيها . كانت الحكومة تسعث أعوانها يجوبون البلاد والاحياء ، فيخفي الناس ابناءهم . كانوا يظنونها شراً عظيماً جاءهم مع جيوش الاحتلال . كنت العب مع الصبية خارج دارنا ، فجاء رجل على فرس ، في ري رسمي ، ووقف فوقنا . جرى الصبية ، وبقيت انظر الى الفرس ولي الرجل فوقه . سألتني عن اسمي فأخبرته . قل لي كم عمرك ، فقلت له لا ادري . قال لي : « هل تحب ان تنعم في المدرسة ؟ » فقلت له : « ما هي المدرسة ؟ » فقال لي : « بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطئ النيل . يدق حرم وتدخل الفصل مع التلاميذ . تتعلم القراءة والكتابة والحساب » . قلت لرجل : « هل لبس عمامة كهذه ؟ » وأشرت الى شيء كالقمة فوق رأسه . فضحك الرجل وقال لي : « هذه ليست عمامة . هذه برنيطة . قمعة » . وترجل من على فرسه ووضعها فوق رأسي فذهب وجهي كله فيها . ثم قال الرجل : « حين تكبر ، وتخرج

من المدرسة ، وتصير موظفاً في الحكومة ، تلبس قبعة كهذه ، قلت لرجل : « اذهب للمدرسة » . أردفني الرجل خلفه فوق لحصات ، وحملني الى مكان ، كما وصفه ، من الحجر ، على صفة النيل ، تحيط به أشجار وأرهار . ودخلنا على رجل ذي لحية ، بلبس جبة ، فقام ورس على رأسي ، وقال لي : « لكن أين أبوك ؟ » فقلت له انت أبي ميت . فقال لي : « من ولي امرك ؟ » قلت له : « أريد أن أدخل للمدرسة » . نظر اليّ الرجل بعطف ، ثم قيدوا اسمي في سجل ، وسألوني كم عمري فقلت لهم لا أدري . وفجأة دق الجرس . فررت منهم ، ودخلت احدى الحجرات فجاء الرجلان وساقاني الى حجرة أخرى واجلساني في مقعد بين صبية آخرين . عدت لي أمي في الظهر فسألني أين كنت ، فحكيت لها القصة . نظرت اليّ برهة نظرة غامضة ، كأنها أردت أن تضمي الى صدرها . فقد رأيت وجهها يهمو برهة ، وعينها تصعان ، وشفتيها تفتران كأنها تريد أن تبسم ، أو تقول شيئاً . لكنها لم تقل شيئاً . وكانت تلك نقطة تحول في حياتي . كان ذلك أول قرار اتخذته ، بحض إرادتي .

إنني لا أطلب منك أن تصدق ما أقوله لك . لك أن تعجب وأن تشك . أنت حر . هذه وقائع مضى عليها وقت طويل ، وهي كما ترى الآن ، لا قيمة لها . أقولها لك لأنها تحضري ، لأن الحوادث بعضها يذكر ببعض الآخر .

المهم انني انصرفت بكل طاقاتي لتلك الحياة الجديدة .
 وصرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ
 والاستيعاب والفهم . أقرأ الكتاب فيسرخ جملة في ذهني .
 ما ألبت أن ركز عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي
 مغالقتها ، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح رضعتها في الماء .
 تعلمت الكتابة في أسبوعين ، وانطبقت بعد ذلك لا ألوي
 على شيء . عقلي كأنه مدية حادة ، تقطع في برود وفعالية .
 لم أبال بدهشة المعلمين وإعجاب رفقاائي أو حسدهم . كانت
 المعلمون ينظرون إليّ كأنني معجزة ، وبدأ التلاميذ يطلبون
 ودي . لكنني كنت مشغولاً بهذه الآلة العجيبة التي أتيت لي .
 وكنت بارداً كحقل جليد ، لا يوجد في العالم شيء يهزني .
 طويت المرحلة الأولى في عامين ، وفي المدرسة الوسطى
 اكتشفت ألفراً أخرى ، منها اللغة الانكليزية . فمضى عقلي
 بعض ويقطع كأسنان محراث . الكلمات والجمل تتراعى لي
 كأنها معادلات رياضية ، والجبر والهندسة كأنها أبيات شعر .
 العالم الواسع أراه في دروس الجغرافيا ، كأنه رقعة شطرنج .
 كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم
 تلك الأيام . وبعد ثلاثة أعوام ، قال لي ناظر المدرسة ، وكان
 انكليزياً : « هذه البلد لا تتسع لذهنك » فساغر . إذذهب إلى
 مصر أو لبنان أو انكلترا . ليس عندما شيء نعطيك إياه
 بعد الآن . قلت له عني الفور : « أريد أن أذهب إلى
 القاهرة » . فسهل لي ، فيما بعد ، السفر ، والدخول بحراً

في مدرسة ثانوية في القاهرة ، ومنحة دراسية من الحكومة .
وهذه حقيقة في حياتي ، كيف قبضت الصدف لي قوماً
ساعدوني وأخذوا بيدي في كل مرحلة ، قوماً لم أكن أحس
تجاههم بأي إحساس بالجميل . كنت أقبل مساعداتهم ،
كأنها واجب يقومون به نحوي .

حين أخبرني ناظر المدرسة بأن كل شيء أعد لسفري
للقاهرة ، ذهبت إلى أمي وحدثتها . نظرت إلى مرة أخرى ،
تلك النظرة الغربية . افترت شفها لحظة كأنها تريد أن
تبسم ، ثم أطققتها ، وعاد وجهها كمهده ، قناعاً كئيفاً ،
بل بمجوعة أفنعه . ثم غابت قليلاً ، وحاءت بصرة وضعتها
في يدي ، وقالت لي :

« لو أن أبك عاش ، لما اختار لك غير ما اختاره
لنفسك . افعل ما تشاء . سافر . أو ابق ، أنت وشأنك .
إنها حياتك ، وأنت حر فيها . في هذه الصرة ما تستعين به .
كان ذلك وداعنا . لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء . مخلوقان
سارا شطراً من الطريق معاً ، ثم سلك كل منها سبيله .
وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي ، فلأنني لم أرها بعد
ذلك . بعد سنوات طويلة ، وتجزب عدة ، تذكرت تلك
اللحظة ، وبكيت . أما الآن ، فلأنني لم أشعر بشيء
على الإطلاق . جمعت متاعبي في حقيبة صغيرة ، وركبت
القطار . لم يلوح لي أحد بيده ولم تنهمر دموعي لفراق أحد .

وضرب القطار في الصحراء ، ففكرت قليلا في البلد الذي خلفته وراني ، فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده ، وفي الصباح قلمت الأوتاد وأسرجت بعيري ، وراصلت رحلتي . وفكرت في القاهرة ونحن في وادي حلقا ، فتخيلها عقلي جبلا آخر ، أكبر حجما ، سأبيت عنده ليلة أو يلتين ، ثم أواصل الرحلة إلى غدة أخرى .

أذكر أنني جلست في القطار قبالة رجل في مسوح وعلى رقبته صليب كبير أصفر . ابتسم الرجل في وجهي وتحدث معي باللغة الانكليزية ، فأجبته . أذكر تماما أن الدهشة بدت على وجهه واتسعت حدقتا عينيه أول ما سمع صوتي . دقو النظر في وجهي وقال لي : « كم سنك ؟ » فقلت له خمسة عشر . كنت في الواقع في الثانية عشرة ، لكنني خفت أن يستخف بي . فقال الرجل . « إلى أين تقصد ؟ » فقلت له : « إنني ذاهب للالتحاق بمدرسة ثانوية في القاهرة » . فقال : « وحدهك ؟ » قلت نعم . نظر إلي مرة أخرى نظرة طويلة فاحصة ، فقلت له قبل أن يتكلم : « إنني أحب السفر وحدي . مم أخاف » ، حينئذ قال لي جملة لم أحفل بها كثيرا وقتذاك . وأضاء وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « إلك تتحدث اللغة لاسكليزية بطلاقة مذهلة » .

وصلت القاهرة ، فوجدت مستر روبنسن وزوجته في انتظاري ، فقد أخبرها مستر متكول بقدومي . صافحني

لرجل وقال لي : « كيف أنت يا مستر سعيد ؟ » فقلت له :
 « أنا بخير يا مستر روبنسن » . ثم قدمني إلى زوجته . وفجأة
 أحسست بذراعي المرأة تطوقانني ، وبشفتيها على خدي .
 في تلك اللحظة ، وأنا واقف على رصيف المحطة ، وسط
 دوامة من الأصوات والأحاسيس ، وزندا المرأة ملتفان حول
 عقي ، وفهما على خدي ، ورائحة جسمها ، رائحة أوربية
 غريبة ، تدغدغ أنفي ، وصدرها بلامس صدري ، شعرت
 وأنا الصبي ابن الاثني عشر عاماً بشهوة جنسية مبهمه لم أعرفها
 من قبل في حياتي ، وأحسست كأن القاهرة ، ذلك الجبل
 الكبير الذي حملني إليه بعيري ، امرأة أوربية ، مثل مسز
 روبنسن تماماً ، تطوقني ذراعها ، يملأ عطرها ورائحة
 جسدها أنفي . كان لون عينيها كلون القاهرة في ذمني ،
 رمادياً ، أخضر ، يتحول بالليل إلى وميض كوميض اليراعة .
 كانت مسز روبنسن تقول لي : « أنت يا مستر سعيد
 إنسان خال تماماً من المرح » . صحيح انني لم أكن أضحك .
 وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا نستطيع أن ننسى
 عقلك أبداً ؟ » ويوم حكموا عليّ في الأولد بيسي بالسجن سبع
 سنوات ، لم أجد صدرأ غير صدرها أسند رأسي إليه . ربت
 عني رأمي وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز » . لم يكن لها
 أطفال . كان مستر روبنسن يحسن للغة العربية ، ويعني
 بانفكر الإسلامى والعمارة الإسلامية ، فزرت معها جوامع
 القاهرة ، ومتاحفها وآثارها . وكانت أحب مناطق القاهرة

أيها ، منطقة لأرهر . كنت حين تكمل أفد من اطواف ،
 نلوث بقمي بجور جامع الأرهر ، ونشرب عصير نتر هسي ،
 ويقرأ ماستر روبنس شعر الميري . كنت وقتها مشغولاً
 بنفسي ، فلم أحفل بالحلب الذي أسفاه علي . كانت منز
 روبنس مملئة الجسم ، برونزية اللون ، منسجمة مع القاهرة ،
 كأنها صورة منتقاة بذوق ، لتدسب لون لجدران في غرفة .
 وكنت أنظر إلى شعر ابطيها وأحس بالذعر . لم يـ كالت
 تلم أنني أشتبهها ، لكنها كانت عذبة ، عذب امرأة عرفتها .
 تضحك مرح ، ونحنو علي كما ونحنو أم علي إبنها .

وكنا عى لرصيف حين أقلعت بي الباخرة من الاسكندرية .
 ورأيتهما من بعيد وهي تلوح لي بمديلتها ، ثم تجحف به الدمع
 من عينيها ، وإلى جرارها زوجها ، واضعاً يديه على خصره ،
 وأكاد أرى ، حتى من ذلك البعد ، صفاء عينيها ،
 لزرقوين . إلا أنني لم أكن حربناً ، كان كل هي أن أصل
 لندن ، جبالاً آخر أكبر من القاهرة ، لا أدري كم ليلة أمكث
 عنده . كنت في الخامسة عشرة ، يظنني من يراني في العشرين ،
 متمسكاً عى نفسي ، كأني قريبة منقوخة . ورائي قصة نجاح
 فذ في مدرسة ، كل سلاحي هذه المدينة الحادة في جمجمتي ،
 وفي صدري إحساس بارد جامد ، كأن جوف صدري مصبوب
 بالصخر ولم انتلعت للجنة الساحل ، وهاج الموح تحت
 السفينة ، وإستدار الأفق لأزرق حوالينا ، أحسست قواً

بألمة غامرة للبحر. انني أعرف هذا العلاق الأخضر اللامنتهي ،
 كأنه يمور بين ضلوعي . واستمرأت طيبة لرحلة ذلك الاحساس
 في أني في لا مكان ، وحدي ، أمامي وخلفي الأبد أو لا شيء
 وصفحة البحر حين يبدأ سراپ آخر ، دائم التبدل والتحول ،
 مثل الفناع الذي على وجه أمي . هنا أيضاً صحراء مخضرة
 مزرقمة ممتدة ، تنادييني ، تنادييني . وقادني النداء الغريب إلى
 ساحل دوفر ، وإلى لندن ، وإلى المأساة . لقد سلكت ذلك
 الطريق بعد ذلك عائداً . وكنت أسائل نفسي طوال الرحلة ،
 هل كان من الممكن تلاقي شيء مما وقع ؟ وترانقوس مشدود ،
 ولا بد أن ينطلق لسهم . وأنظر إلى اليسار واليمين ، إلى
 الخضرة الداكنة ، والقرى اسكسونية القائمة على حوافي التلال .
 ستمرف البيوت حمراء ، محدودة كطمور لبقر ، وثمة غلالة
 شفافة من الضباب ، منشورة فوق الوديان . ما أكثر الماء هنا
 وما أرحب الخضرة . وكل تلك الألوان . ورثعة لمكان
 عربية ، كرائحة جسد مسز روبنسن . والأصوات لها وقع
 نظيف في أذني ، مثل حفيف أجسدة الطير . هذا عالم منظم ،
 بيوتة وحقوله وأشجاره مرسومة وفقاً لحطة . الغدران كذلك ،
 لا تتعرج ، بل تسيل بين شطآن صناعية . ويقف القطار في
 الحطة ، بضع دقائق . يخرج الناس مسرعين ، ويدخلون
 مسرعين ، ثم يتحرك القطار . لا ضوضاء . وفكرت في حياتي
 في لقاهرة . لم يحدث شيء ليس في الحسبان . زادت معلوماتي .
 وحدثت لي أحداث صغيرة ، وأحبتي زميلة لي ثم كرهتني

وقالت لي : « أنت لست نساناً . أنت آتة صماء » . نسكمت في شوارع القاهرة ، وررت لأورا ، ودخلت المسرح ، وقطعت اليس ساجماً ذات مرة . لم يحدث شيء إطلاقاً ، سوى أن لقمة رادت تنفاحاً ، ونوتر وتر القوس . سينطلق السهم نحو آفاق أخرى محمومة . ويطر إلى دخان انقطاع ، يتلاشى ، حيث تهب به الريح ، في غلالة الضباب المنتشرة في الوديان . وأخذتني سنة من النوم . وحملت أنني أصلي وحدي في جامع القلعة . كان المسجد مضياءً بآلاف الشمعدانات ، والرخام الأحمر يتوهج ، وأنا وحدي أصلي . واستيقظت وفي أنفي رائحة البخور ، فإذا بقطار يقترب من لندن . القاهرة مدينة صالحة ، وكذلك مسز روبنسن . كانت تريدني أن أناديها باسمها الأول ، ايزابيث ، لكنني كنت أناديها باسم زوجها . تعلمت منها حب موسيقى دج ، وشعر كيتس ، وسمعت عن مارك توين لأول مرة منهم . لكنني لم أكن أستمع بشيء . ونضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبداً ؟ » هل كان من الممكن ثلاني شيء مما حدث ؟ كنت عائداً حينذاك وتذكرت ما قاله لي اقسيس ، وأنا في طريقي إلى القاهرة : « كلنا يا بني ناسفروا وحدنا في نهاية الأمر » . كانت يده تتحسس الصليب على صدره . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » . اللغة التي أسمعوها الآن ليست كاللغة التي تعلمتها في المدرسة . هذه أصوات حية ، لها جرس آخر .

كان عقلي كأنة مدية حادة . لكن اللغة ليست لعتي . تعلم
فصاحتها بامبارسة . وحلطني العطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى
عالم جين مورس .

كل شيء حدث قبل لقائني إياها ، كان ارهاصاً . وكل
شيء فعلته بعد أن قتلتها كان اعتذاراً ، لا لقتلها ، بل
لأكذوبة حياتي . كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ،
وفي حفل في تشلسي . الباب ، وممر طويل يؤدي إلى الداعة .
فتحت الباب ، وتريثت ، وبدأت لعيني تحت ضوء المصباح
الدهت كأنها سراب لمع في صحراء . كنت نغوراً ، كأس
بقي ثلثها ، وحولي فتاتان ، أتفحش معهما ، وتضحك .
وحدهت تسمى نحواً بخطوات وسعة ، تضع ثقل جسمها على
قدمي ليمني ، فيميل كفلها إلى اليسار . وكانت تنظر إلي
وهي قادمة . وقفت قبالي ونظرت إلي بصف وبرد . . . وشيء
آخر . وفتحت فمي لأتكلم ، لكنني ذهبت . وقلت لسانتي
« من هذه الانثى ؟ » .

كانت لندن خارقة من الحرب ومن وطأة العهد الفكتوري .
عرفت حبات تشلسي ، وأندية هامستد ، ومنشآت
بنومرري . اقرأ شعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، واقد
الرسم ، واقول كلاماً عن روحانيات الشرق . أفعل كل شيء
حتى أدخل المرأة في فراشي . ثم أسير إلى صيد آخر . لم يكن
في نفسي قطرة من المرح ، كما قالت مسز روبنس . حدثت

النساء الى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص ، وجمعيات الكويكرز ، ومجتمعات الغابيين . حين يجتمع حزب الاحرار و العمال و المحافظين أو الشيوعيين ، أسرج بعيري و اذهب . وفي المرة الثانية ، قالت لي حين مورس : « أنت بشع . لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك » . وفتحت فمي لأنكم لکنها ذهبت . وحلفت في تلك اللحظة ، وأنا سكران انني سأقتاضها الثمن في يوم من الايام . وصحوت وآن همد الى جواربي في الفراش . أي شيء جذب آن همد اليّ؟ ابوها ضابط في سلاح المهندسين ، واماها من العوائل الثرية في لفربول كانت صيداً سهلاً ، لقيتها وهي دون العشرين ، تدرس اللغات الشرقية في اكسفورد . كانت حية ، ووجهها ذكي مرح وعيناها نبرقان بحب الاستطلاع . رأنتي فرأت شفقاً داكناً كفجر كاذب . كانت عكسي تنحس الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينها رمزاً لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . آن همد قضت طفولتها في مدرسة راهبات . عمها زوجة نائب في البرلمان . حولتها في فراشي الى عاهرة . غرفة نومها مقبرة قتل على حديقة ، ستائرهما وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندس دافئ والسريز رحب مخداته من ريش النعام . وأضواء كهربائية صغيرة ، حمراء ، وزرقاء ، وبنفسجية ، موضوعة في زوايا مميّنة . وعلى الجدران مرايا كبيرة ، حتى اذا ضاجت امرأة ، بدا كأنني اضاحح حريماً كاملاً في آن واحد . فعبق

في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند ، وفي الحمام عطور شرقية نفّاذة ، وعقاقير كباوية ، ودهون ، ومساحيق ، وحبوب . غرفة نوم كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى . ثمة بركة ساكنة في اعماق كل امرأة . كنت أعرف كيف أحركها . وذات يوم وجدوها ميتة انتحاراً بالفاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي . ليس فيها سوى هذه العبارة : مستر سعيد . لعنة الله عليك . كان عقلي كأنه مدية حادة . وحلني القطار الى محطة فكتوريا . والى عالم جين مورس

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن ، جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني ، كأنهم يتحدثون عن شخص لا عني أمره . كان المدعي العمومي سير آرثر هفتز عقل مربع ، أعرفه تمام المعرفة ، علمني القانون في أكسفورد ، ورأيت من قبل ، في هذه المحكمة نفسها وفي هذه القاعة ، يعنصر المتهمين في قفص الانهزام اعتصارا . نادراً ما كان يفلت منهم من يده . ورأيت متهمين يبكون ويغمى عليهم ، بعد أن يفرغ من استجوابهم . لكنه هذه المرة كان يصارع جثة .

« هل تسببت في انتحار آن موند ؟ »

« لا أدري »

« وشيلا غرينود ؟ »

« لا أدري »

« وإيزابيلا سيمور ؟ »

« لا أدري »

« هل قتلت جين مورس ؟ »

« نعم »

« قتلها عمدا ؟ »

« نعم »

كان صوته كأنما يصي من عام آخر . ومضى الرجل يرسم
بحذق صورة مربعة لرجل ذئب ، تسبب في نتحار فتاتين ،
وحطم امرأة متروجة ، وقتل زوجته ، رجل أنثي ،
انصبت حياته كلها على طلب اللذة . ومرة خطر لي في
غيبوتي ، وأنا جالس هناك أستمع إلى أستاذي ، برفور
ماكسول فستر كين ، يحاول أن يخلصني من المشقة ، أن أقف
وأصرخ في المحكمة : « هذا لمصطفى سعيد لا وجود له .
انه وهم ، أكذوبة . واني أطلب منكم أن تعكموا بقتل
الأكذوبة » . لكنني كنت هامداً مثل كومة رماد .
ومضى برفور ماكسول فستر كين يرسم صورة لعقل عبقرى
دفعته الظروف إلى القتل ، في لحظة عمرة وحنون . روى
لهم كيف بني عينت محاضراً للاقتصاد في جامعة لندن ،
وأنا في الرابعة ولعشرين . قبل لهم أن « آن همد » و « شيلا
غريود » كانتا فتاتين تبحثان عن موت بكل سبيل ،
وانهما كانتا ستنتحرا . سوء قابلتا مصطفى سعيد أو لم
تقابلا . « مصطفى سعيد » حضرات الخلق إنسان نبيل ،
ستوعب عقله حشرة غريب ، لكن حطمت قلبه . هاتان
انفتان لم يقتلها . مصطفى سعيد ولكن قتلها حرثوم مرض

عضال أمانيها منذ ألف عام ، . وخطري أن أنف وأقول
لهم ، هذا زور وتلفيق . قتلتها أنا . أنا صحراء الظمأ .
أنا لست عطيلاً . أنا أكذوبة . لماذا لا تحكمون بشنقي
فتقتلون الأكذوبة ! ، لكن برفسور فستر كين حوّل المحاكمه
إلى صراع بين عالمين ، كنت أنا إحدى ضحاياه . وحلّمني
القطر إلى محطة فكنوريا ، وإلى عالم جين مورس .

بثت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يزداد وتر القوس
توتراً ، قربي بملوءة هواء ، وقوافلي ظمأى ، والسراب يلمع
أمامي في متاهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر
من وقوع المأساة . وذات يوم قالت لي : « أنت ثور هيجي لا
يكن من الطراد . إنني تعبت من مطاردتك ي ، ومن جريبي
أمامك . تزوجني ، . وتزوجتها . غرفة يومي صارت ساحة
حرب . فراشي كان قطعة من الجحيم . أمسكها فكأنني
أملك سحابة ، كأنني أضاجع شهاباً ، كأنني أمتطي صهوة
شيد عسكري بروسي . دتماً تلك الابتسامة المريرة على
فمها . أقضي الليل ساهراً ، أخوض المعركة بالقوس والسيف
ولرمح والنشاب ، وفي الصباح أرى الابتسامة ما فتئت على
حالتها ، فعلم نني خسرت الحرب مرة أخرى . كأنني
شهربار رقيق ، تشتريه في السوق بدينار ، صادف شهرزاد
متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت أعيش مع
نظريات كينز وتوني بالهار ، وبالليل أوصل الحرب بالقرص
والسيف والرمح والنشاب . رأيت الجنود يعودون ، يملؤهم

الذعر ، من حرب الخنادق والقمل والوباء . رأيتهم يزرعون
 بذور الحرب القادمة في معاهدة فرساي ، ورأيت لويد
 جورج يضع أسس دولة الرفاهية العامة . وانقلبت
 المدينة إلى امرأة عجيبة ، لهارموز ونداءات غامضة ،
 ضربت اليها أكباد الابل ، وكاد يقتلني في طلابها الشوق ،
 غرفة نومي ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتاك . العدوى
 أصابتهم منذ ألف عام ، لكنني هيجت كوامن الداء حتى
 استفحل وقتل . وكان المغنون يرددون أهازيج الحب الحقيقي
 والمرح في مسارح لستر سكوير ، فلم يخفق لها قلبي . من كان
 يظن أن شيلا غرينود تقدم على الانتحار ؟ خادمة في مطعم
 في سوهو . بسيطة حلوة الميسم ، حلوة الحديث . أهملها
 قرويون من ضواحي هل . أغربتها بالهدايا والكلام المعسول ،
 والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه . جذبها عالمي الجديد
 عليها . دوحته رائحة الصندل المحروق والند ، ووقفت وقتاً
 تضحك لحياها في المرأة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته
 كالشوطة حول جيدها الجميل . دخلت غرفة نومي بتولاً
 بكراً ، وخرجت منها تحمل جرثوم لمرض في دمها . ماقت
 درن أن تنبس ببنت شفة . ذخيري من الأمثال لا تنفذ .
 ألبس لكل حالة لبوسها ، شئ يعرف متى يلاقي طبقه .
 « أليس صحيحاً أنك في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٢٢
 وفبراير ١٩٢٣ ، في هذه الفترة وحدها على سبيل المثال ،
 كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد ؟ » .

« بلى » .

« وادك كنت توهم كلا منهن بالزواج ؟ »

« بلى » .

« وادك انتحلت إسماً مختلفاً مع كل منهن ؟ »

« بلى » .

« انك كنت حسن ، وتشارلز ، وأمير ، ومصطفى ،

ورتشارد ؟ »

« بلى » .

« ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن لاقتصاد المبني على الحب لا على الأرقام ؟ أليس صحيحاً انك أقمت شهرتك بدعوتك الانسانية في الاقتصاد ؟ »

« بلى » .

ثلاثون عاماً . كان شجر الصفصاف يبيض ويخضر ويصفر في الحدائق ، وطير الوقوق يفني للربيع كل عام . ثلاثون عاماً وقاعة البرت نفص كل ليلة بمشق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر . مسرحيات برنرد شو تمثل في الرويال كورت والهيباركت . كانت أيدث ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس اف ويلر يفيض بالشباب والالتق . البحر في مده وجزره في بورتمث وبرايثن ، ومنطقة البعيرات تزدهي عاماً بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ، في تحول سرايبي مع تحول الفصول . ثلاثون عاماً

وأنا جزء من كل هذا ، أعيش فيه ، ولا أحس جماله الحقيقي ،
ولا يعنيسي منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة .

نعم . في الصيف . قالوا ان صيفاً مثله لم يأتهم منذ مائة
عام . وخرجت من داري يوم سبت اششم الهواء ، وأحس
نافني مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء في حديقة
هايد يارك . كان غاصاً بالخلق . وقفت عن بعد أستمع إلى
خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين .
استقرت عيني فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب ،
فيرتفع ثوبها إلى ما فوق الركبتين ، مظهرأ ساقين ملتفتين من
البروز . نعم هذه فريسي . وسرت إليها . كالقارب يسير
إلى الشلال . ووقفت وراها ، والتصقت حتى أحسست
بحرارته تسري إلي . وشممت رائحة جسدها ، تلك الرائحة
التي استقبلتني بها مسر روبدون على رصيف محطة القاهرة .
واقتربت منها حتى أحسست بي ، فالتفتت إلي فجأة ، فابتسمت
في وجهها ابتسامة لم أكن أعلم مصيرها ، لكنني عزمت على
ألا تصيع هباء . وضحكت أيضاً ، حتى لا تنقلب لدهنة
في وجهها إلى عداة فابتسمت . ووقفت إلى جانبها نحواً من
ربع الساعة ، أصحك حين يصحكها قول الخطيب ، وأضحك
بصوت مرتفع لكي تسري فيهما عدوى الضحك ، حتى
جاءت لحظة ، أحسست فيها أنني وهي صرنا كفرس ومهرة ،
يركضان في تناسق ، جنباً إلى جنب . وهذا حرج الصوت
من خلقي ، كأنه ليس صوتي : وما رأيك في شراب ،

بعيداً عن هذا الزحام والحر ؟ ، أدارت رأسها بدهشة ، فابتسمت هذه المرة ابتسامة عريضة بريئة ، حتى أحول الدهشة إلى حب استطلاع على لأقل . وفي أثناء ذلك تفرست في وجهها ، فوجدت كل ممة من مماته يزيدني اقتناعاً بأن هذه فريستي . كنت أعلم ، بطبيعة المقامر ، ان تلك اللحظة حاسمة . كل شيء في هذه اللحظة محتمل . وتحولت ابتسامتي إلى سرور كاد يعلى رمامه من يدي حين قالت : « نعم . ولم لا ؟ ، وسرنا معاً ، أحسن بها ، إلى جاني وهجاً من البرونز تحت شمس يوليو ، أحسن بها مدينة من الأسرار والنعيم . وسرني انها تضحك بسهولة . هذه السيدة ، نوعها كثير في أورنا ، نساء لا يعرفن الخوف ، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع . وأنا صحراء الضمأ ، متاهة الرغائب الخنونية . وسألتنى ونحن نشرب الشاي عن بلدي . رويت لها حكايات ملفقة عن صحاري ذمبية الرمال ، وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها . قلت لها ان شوارع عصمة بلادي تمج بالأفيال والأسود ، وتزحف عليها لتصبح عند القيلولة . وكانت تستمع إلى بين مصدقة ومكذبة . تضحك ، وتغمض عينيها ، وتحمّر وجنتيها . وأحياناً تصفي إلي في صمت ، وفي عينيها عطف مسيحي . وجاءت لحظة أحسست فيها انني انقلبت في نظرها مخلوقاً بدائياً عارياً ، يمسك بيده رحماً ، والآخرى نشاباً ، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال . هذا حس . لقد تحول حب الاستطلاع إلى مرح ، وتحول

المرح إلى عطف ، وحين أحرك البركة الساكنة في الأعماق ،
سيستجيب العصف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة كما
يحلو لي . وسألتني : « ما جنسك ؟ هل أنت أفريقي أم
آسيوي ؟ »

قلت لها : « أنا مثل عطيل . عربي أفريقي » .
نظرت إلى وجهي وقالت : « نعم . أنك مثل أنوف
العرب في الصور . لكن شعرك ليس فاحماً ناعماً مثل شعر
العرب » .

« نعم . هذا أنا . وجهي عربي كصحراء الربع الخالي ،
ورأسي أفريقي يمور بطفولة شريرة » .

ضحكت وقالت : « أنت تصور الأشياء بشكل غريب » .
وقادنا الحديث إلى أهلي ، فقلت لها ، غير كاذب هذه
المرة ، انني يتيم وليس لي أهل . ثم عدت إلى الكذب ،
فوصفت لها وصفاً مهولاً كيف فقدت والدي ، حتى رأيت
الدمع يطفر إلى عينيها . قلت لها انني كنت في السادسة من
عمرى ، حين غرق والداي مع ثلاثين آخرين في مركب كان
يعبر بهم النيل من شاطئ إلى شاطئ . وهنا حدث شيء كان
أفضل من الرثاء . الرثاء في مثل هذه الأمور عاطفة غير
مضمونة المواقب . لمعت عيناها ، وصاحت في نشوة :

« تأبل ؟ »

« نعم النيل » .

أنتم إذن تسكنون على ضفاف النيل ؟

« أجل ، بيتنا على ضفة النيل تماماً بحيث انني كنت ،
إذا استيقظت على فراشي ليلاً ، أخرج يدي من النافذة
وأداعب ماء النيل حتى يغلبتي النوم » .

انطائر يا مستر مصطفى قد وقع في الشرك . الليل ،
ذلك الإله الأفعى ، قد فاز بضحية جديدة . المدينة قد
تحولت إلى امرأة . وما هو إلاّ يوم أو أسبوع ، حتى أضرب
خيمتي ، وأغرس وتدي في قمة الجبل . أنت يا سيدي قد
لا تعلمين ، ولكنك ، مثل « كارنارفون » ، حين دخل قبر
نوت عسخ آمون ، قد أصابك داء فتاك لا تدرين من أين أتى ،
سيودي بك إن عاجلاً وإن آجلاً . ذخيرتي من الأمثال لا
تفد . شئ يعرف متى يلاقي طبقه . وأحسست بزمام الحديث
في يدي ، كفنان مهره مطواع ، أشده فتقف ، اهزه فتمشي ،
احركه فتتحرك وفقاً لإرادتي ، إن يميناً وإن شمالاً .
وقلت لها :

« مضت ساعتان دون أن أحس بهما . لم أحس بمثل هذه
السعادة منذ زمر بعيد . وبقي كثيراً أقوله لك وتقولتيه لي .
ما رأيك في ان نتشى معاً ، ونواصل الحديث ؟ »

صمتت برهة ، فلم أقلق ، لأنني احسست بذلك الدفء
لشيطاني ، تحت الحجاب الحاجز حين احسه أعلم انني مسيطر
على زمام الموقف . لا ، انها لن تقول لا . وقالت : « هذا
لقد عجيب . رجل غريب لا اعرفه يدعوني . هذا لا يجوز ،

لكن .. ، وصمتت ثم قالت : « نعم . لم لا ؟ هيتك لا تدل على انك من آكلة لحوم البشر » .

قلت لها ، وموجة الفرح تتحرك في ، جذور قلبي :
« ستجدين انني تمساح عجوز سقطت اسنانه . لن أقوى على أكلك حتى لو أردت » . قدرت انني اصغرها بخمسة عشر عاماً على الأقل ، امرأة في حدود الأربعين ، معها حدثت لها من التجارب فإن الزمن قد عامل جسداً بحنو . التجاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى اركانها لا تقول لك انها شاخت ، بل تقول انها نضجت .

حينئذ فقط سألتها عن اسمها فقالت : « إزابيلا سيمور » .
رددته مرتين ، وأنا أملأ به فمي ، كأنني آكل ثمرة كمثري .

« وانت ما اسمك ؟ »

« أنا .. أمين . أمين حسن » .

« سأسميك حسن » .

ومع الشواء والنبيذ ، انفرجت اساريرها ، وقدفق حب تحس به نحو العالم بأسره ، عليّ أنا . وأنا لا يعنيني حبها للعالم . ولا سحابة الحزن التي تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ما تعنيني حمرة لسانها حين تضحك ، واكتناز شفثيها ، والأسرار الكامنة في قاعها . وتحيلتها عارية ، وافحشت التخيل وهي تقول لي : « الحياة مليئة بالألم . لكن يجب علينا أن نتفاهل ، ونواجه الحياة بشجاعة » .

معه أنا اعلم الآن ان الحكمة القريبة لمسأل ، تخرج من
 افواه المسطاء ، هي كل املنا في الخلاص . الشجرة تنمو
 بساطة ، وجداء عاشر وسيموت بساطة . ذلك هو السر .
 صدقت يا سيدتي ، الشجاعة وانتفايل . ولكن إلى ان يوث
 استضعفون الأرض ، وتسرح اجيوش ، ويرعى المحل آمناً
 بحوار الدئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التماسيح في النهر ،
 إلى ان يأتي زمان السعادة والحب هذا ، سأظل انا اعبر عن
 نفسي بهذه الصريقة الملقوة . وحين اصل لاهثاً قمة الجبل ،
 ونحرس البيروق ، ثم ألتقط أنفاسي وأستحم تلك يا سيدتي
 نشوة اعظم عمدي من الحب ، ومن سعادة . ولهذا ، فأنا
 ذا أروي بك شراً ، إلا بقدر ما يكون البحر شريراً ، حين
 تتحطم اسفن على صخورده ، وبقدر ما تكون الصاعقة شريرة
 حين تشق لشجرة نصفين . وتركزت افكارة الأخيرة في
 رأسي ، بشعيرات على ذراعيها الأيمن ، قريباً من الرسغ ،
 ولاحظت ان شعر ذراعيها أكتف . هو عند النساء عادة ،
 وقد دني هذا إلى شعر آخر لا بد انه ناعم غريب مش ببات
 السعدة على حافة الجدول . وكأننا سرت الفكرة من ذهني
 إليها ، فاعتدلت في جلستها وقالت . « ما بالك تبدو
 حزينا ؟ »

« هل أبدر حزينا ؟ أد على العكس ، سعيد جداً . »

وعادت النظرة الخائبة إلى عينيها ، ومدت يدها فأمسكت

يدي وقالت . « هل تسري أن ي سافنة »

« هذا إذن يفسر كل شيء . يفسر له ما صدفه ، وتفاهمنا
تندبياً ، كأننا تعارفنا منذ قرون . لا بد أن جدي كان
جندياً في جيش طارق ابن زيد . ولا بد أنه قابل جدتك ،
وهي تجي العيب في بيت في أشيلية . ولا بد أنه أحبها من
أول نظرة ، وهي أيضاً أحبته . وعاش معها فترة ثم تركها
ودهب إلى أفريقيق . وهناك تروج . وخرجت أنا من ملالته
في أفريقيقا ، وأنت حنت من ملالته في اسبانيا » .

هذا الكلام ، والضوء الخافت أيضاً والنبيذ ، أسعدها ،
ففرقت لهاها بالضحك وقالت :
« يا لك من شيطان » .

وتخيلت برهة لقاء جنود العرب لاسبانيا . مثلي في هذه
اللحظة ، اجلس قبالة ايزابيلا سيمور ، ظمأ جنوني تبدد في
شباب التاريخ في الشمال . أنا لا أطلب المجد ، فشلي لا
يطلب المجد .

وأدرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة ، وهي إلى
جانبي ، أندلس خصب ، وقعتها بعد ذلك عبر المر القصير
إلى غرفة النوم ، ولعحتها رائحة الصندل المحروق والند ،
فملأت رئتيها بعبير لم تبكن تعلم أنه عبير قاتل . كنت تلك
الأيام ، حين تصبح القمة مني على مد الذراع ، يعتريني هدوء
تراجيدي . كل الحمى والوجيب في القلب ، والتوتر في المصعب ،

. جـول إلى هدوء حراح وهو يشق بطن المريض . ركبت
 أعلم أن الطريق القصير الذي سرناه معاً إلى غرفة النوم ، كان
 . نسخة لها طريقاً مضيئاً ، يعبق بعبير التسامح والمحبة ، وكان
 بالنسبة لي الخطوة الأخيرة ، قبل الوصول إلى قمة الأثانية .
 وريثت عند حافة الفراش ، كأنني الحصى تلك اللحظة في
 ذهني ، وألقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمرآت
 الكبيرة ، والأضواء الخدرة في أركان الحجرة ، ثم على تمثال
 البرونز المكتمل التكوين أمامي . ونحن في قمة لماسة
 صرخت بصوت ضعيف : « لا لا » . هذا لا يحددك نفعاً
 الآن . لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان بوسعك الامتناع
 عن إتخاذ الخطوة الأولى . انني أخذتك على غرة ، وكان
 بوسعك حينئذ أن تقولي « لا » . أما الآن فقد جرفك تيار
 الأحداث ، كما يحرف كل انسان ، ولم يعد في مقدورك فعل
 شيء . لو أن كل انسان عرف متى يمتنع عن اتخاذ الخطوة
 الأولى ، لتغيرت أشياء كثيرة . هل الشمس شريرة حين تحيل
 قلوب ملايين البشر إلى صحاري تتعارك رمالها ويحف فيها
 حلق العندليب؟ وريثت وأنا أمسح براحة يدي ظاهر عنقها ،
 وأقبلها في منابح الإحساس . ومع كل لمسة ، مع كل قبلة ،
 أحس أن عضلة في جسدها ترتخي ، وتأتق وجهها ولعت
 عيناها بهريق خاطف ، وستطالت نظراتها كأنها تنظر إلى
 فتراني رمزاً ليس حقيقة . وسمعتها تقول لي بصوت منضرع
 مستسلم : « أحبك » ، فجارب صوتها هتاف ضعيف في أعماق

وعبي بدعوني أن أقف . لكن لقمة صارت على بعد خطوة ،
وبعد ذلك التقط القاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت
برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيره
مالحة وسط الصحراء . وانفجرت هي ببكاء ممض محرق ،
واستسلمت أنا إلى نوم متوتر محموم .



كانت ليلة قانظة من ليالي شهر يوليو ، وكان النيل قد فاض ذلك العام احد فيضاته تلك ، التي تحدث مرة كل عشرين او ثلاثين سنة ، وتصبح اساطير يحدث بها الآباء ابناءهم . وغمر الماء اغلب الأرض الممتدة بين الشاطي وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت ، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء . وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة ، أو يقطعون المسافة سباحة ، وكان مصطفى سعيد حسب علمي يحيد السباحة . حدثني أبي ، فقد كنت في الخرطوم وقتها ، انهم ممنوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحى ، فهرعوا الى مصدر الصوت فاذا الصراخ في در مصطفى سعيد . كان من عادته ان يعود من حقله مع مغيب الشمس ، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى . وذهبت تسأل عنه هنا وهناك ، فاخبروها انهم رأوه في حقله والبعض ظن انه عاد الى بيته مع بقية الرجال . وانكبت البلد كلها على الشاطي . الرجال في ايديهم المصابيح وبعضهم في القوارب . وظلوا

يبحثون الليل كله دون جدوى . وارملوا اشارت تليفونية
الى مركز البوليس على امتداد انيل حق كرمه . ولكن الجثث
التي حملها الموج الى الشاطئ ذلك الاسبوع لم تكن بينها جثة
مصطفى سعيد . وفي النهاية اُخذوا الى الرأي انه لا بد قد
مات غرقاً ، ون جثمانه قد استقر في بطون النسيج التي يفيض
بها الماء في تلك المنطقة .

أما أنا ، فانه يخامرني ذلك ، الاحساس الذي اعتزاني ليلة
سمعه ، فجأة وعلى غير استعداد مني ، بقرأ شعراً سكليرياً ،
وهو بمك كأس الخمر بيده ، دافئاً قامته في الكرسي ، ممدداً
رجليه ، ضوء المصباح ينعكس على وجهه ، وعينه سارحتان
كما خيل لي في آفاق داخل نفسه . والظلام حولي في الخارج
كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح احياً
تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة ان مصطفى سعيد لم يحدث
اطلاقاً ، وانه فعلاً اكدوبة ، أو طيف أو حلم ، أو كابوس ،
ألم بأهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة حانقة ، ولما فتحوا
اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه .

كان الليل قد بقي اقله حين قمت من عند مصطفى سعيد ،
وخرجت وأنا أشعر بالتعب - ربي من طول الجلوس - ومع
ذلك لم أكن أرغب في النوم ، فمضيت اتسكع في شوارع ابلد
الضيقة المتعرجة ، تلامس وحيي نسبات ليل لماردة التي تهب
من الشمال محملة بالتدي ، محملة برائحة زهور الطلح ورث البهائم ،
ورائحة الأرض التي رويت لتوها بماء بعد ظمأ ايام ، ورائحة

قناديل الذرة في منتصف نضجها ، وعبر اشجار الليمون ،
 كان البلد كعادته صامتاً في تلك الساعة من الليل ، الا من
 طقطقة مكينة الماء على الشاطيء ، وبياح كلب من حين لآخر ،
 وصياح ديك منفرد 'حس' بالفجر قبل الاوان ، يحاربه صياح
 ديك آخر ، ثم يخيم الصمت . وممرت ببيت ود الرئيس
 الوطني عند منعطف الدرب ، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءاً
 خافتاً ، وسمعت زوجة ود الرئيس تصرخ باللذة . واحسنت بالحجل
 لانني اطلعت على أمر لم يكن من حقي ان أطلع عليه . لم يكن
 بحق لي ان اظل يقظاً اتسكع في شوارع البلد ، وبقية الناس في
 أسرهم ، انني اعرف هذه القرية شارعاً شارعاً ، وبيتاً بيتاً ، واعرف
 أيضاً القببات العشر وسط المقبرة في طرف الصحراء اعلى البلد .
 و'قبور' ايضاً ، اعرفها واحداً واحداً ، زرتها مع ابي وزنتها مع امي
 وزرتها مع جدي ، واعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد
 لي والدين ماتوا بعد ولادتي . وقد شيعت مع المشيعين منهم
 أكثر من مائة ، أساعد في حفر التربة ، واقف على حافة القبر
 في رحام الناس ريثما يوسد الميت بججارتته ، واهير التراب .
 فعلت ذلك مع أهل البلد في الصباح ، وفي حارة القبط أشهر
 الصيف ، وبالليل في أيدينا المصابيح والحقول أيضاً أعرفها ،
 منذ كانت سواقي ، وأيام القحط حين هجرها الرجال وتحوات
 الأرض الخصبة أرضاً بلقماً تسفرها الريح . ثم جاءت مكينات
 الماء وجاءت الجمعيات التعاونية ، وعاد من تزح من الرجال ،
 وعادت الأرض كما كانت ، تنتج الذرة في الصيف والقمح في

الشتاء . كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة ، ولكنني
أبدأ لم أرَ القرية في مثل هذه الساعة في أواخر الليل . لا بد
ان تلك النجمة الكبيرة الزرقاء المتوهجة هي نجمة الصباح . السماء
تبدو أقرب إلى الأرض في مثل هذه الساعة ، قبيل الفجر ،
والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والأرض .
وتذكرت وأنا أعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ودالريس
وبيت جدي ، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد ،
تذكرتها بنفس إحساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت
مناغاة ودالريس مع زوجته . فخذان بيضاوان مفتوحتان .
ووصلت عند بيت جدي فسمعت يتلو أوراده استعداداً لصلاة
الصبح . ألا ينام أبداً ؟ صوت جدي يصل ، كان آخر صوت
أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ . وهو
على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط
عالم متحرك وأحسست فجأة بروحي تذعن كما يحدث
أحياناً أثر إرهاب طويل ، وصفا ذهني ، وتبخرت الأفكار
السوداء التي أثارها حديث مصطفى سعيد . البلد الآن ليس
معلقاً بين السماء والأرض ، ولكنه ثابت ، البيوت ثابتة ؟
والشجر ، شجر ، والسماء صافية ولكنها بعيدة . هل كان من
المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال إنه
أكذوبة ؟ فهل أنا أيضاً أكذوبة ؟ نفي من هنا . أليست هذه حقيقة
كافية ؟ لقد عشت أيضاً معهم ، ولكنني عشت معهم على السطح ، لا
أحبهم ولا أكرهم . كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ،

أراها بعين خيالي ابناً التفت . أحياناً في أشهر الصيف في لندن ، أثر هطلة مطر ، كنت أتم رائقها . في لحظات حاطفة قبيل مغيب الشمس ، كنت أراها . في أخريات الليل ، كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي هنا . أنا ، لا بد ، من هذه الطيور التي لا تعيش إلا في بقعة واحدة من العالم . صحيح أنني درست الشعر ، بيد أن هذا لا يعني شيئاً . كان من الممكن أن أدرس الهندسة أو الزراعة أو الطب . كلها وسائل لكسب العيش . الوجوه هناك ، كنت أتخيلها ، قمحية أو سوداء ، فتبدو وجوهاً لقوم أعرفهم هناك مثل هنا ، ليس أحسن ولا أسوأ . ونكثني من هنا ، كما أن السخلة القائمة في فناء دارنا ، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها . وكونهم جاءوا إلى ديارنا ، لا أدري لماذا ، هل معنى ذلك أننا نسم حاضراً ومستقبلاً أنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة . مكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وستحدث لغتهم ، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجيل . سنكون كما نحن ، قوم عاديين ، وإذا كنا أكاذيب ، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا .

مثل هذه الأفكار وصلتني إلى فراشي ، وصاحبتي بعد ذلك إلى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف . مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفتأ أقابله من حين

لآخر . لقد عشت خمسة وعشرين عاماً ، وأنا لم أسمع به ولم أره . ثم ، هكذا فجأة أبعد في مكان لا يوجد فيه أمثاله . وإذا بمصطفى سعيد ، رغم ارادتي ، جزء من عالمي ، فكرة في ذهني ، طيف لا يريد أن يمضي في حال سيئه . وإذا إحساس بعيد بالخوف ، بأنه من الجائز ألا تكون البساطة هي كل شيء . مصطفى سعيد قال ان جدي يعرف السر . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . هكذا . لكن هب انه كان يسخر من بساطتي ؟ في رحلة بالقطار بين الخرطوم والأبيض ، كنت معي في نفس القمرة موظف متقاعد . حين تحرك القطار من كوستي كان الحديث قد وصل بنا إلى أيام دراسته . وعمت منه ان عدداً من رؤسائي في وزارة المعارف كانوا معاصريه في المدرسة ، وبعضهم كان يزامل في نفس الفصل . ومضى الرجل يذكر ان فلاناً في وزارة الزراعة كان زميله ، والمهندس فلاناً كان في الفصل الذي أمامه ، وفلاناً ، التاجر الذي اغتنى أيام الحرب ، كان من أبلد خلق الله في فصلهم ، والجراح الشهير فلاناً كان أحسن جناح أيمن في المدرسة كلها أيامهم . وفجأة رأيت وجه الرجل يضيء ، وعينه تلمعان ، وقال في صوت متحمس منفعل : « غريبة . تصور انني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا ، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة . الآن فقط تذكرته . نعم ، مصطفى سعيد » .

مرة أخرى ذلك الإحساس ، بأن الأشياء العادية أمام

عينيك تصبح غير عادية . رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان ،
وخيل لي أن الضوء المنعكس على نظارة الرجل ، في لحظة
لا تريد عن طرفة العين ، يتوهج توهجاً خاطفاً كأنه شمس في
رابعة النهار . ولا بد أن لدينا في تلك اللحظة بدت مختلفة
مانسة للأمور المتقاعد أيضاً ، إذ أن تجربة كاملة كانت
خارج وعيه أصبحت فجأة في متناول اليد . حين رأيت وجهه
أول مرة ، قدرت أنه في منتصف الستين . وأنظر إليه الآن
وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة ، فأرى رجلاً لا يزيد
 يوماً واحداً عن الأربعين .

« نعم ، مصصمى سعيد كان أبغ تلميذ في أيامنا . كما
في فصل واحد . كان يجلس في الصف الذي أمام صفنا
مباشرة . ناحية اليسار . بالفرابة ، كيف لم يخطر على بالي
فكر الآن مع أنه كان معجزة في ذلك الوقت ؟ كان أشهر
طالب في كلية غردون ، أشهر من أعضاء النيم لكرة القدم ،
ورؤساء الداخليات ، والخطباء في الليالي الأدبية ، والكتاب
في جريدة الحائط ، والممثلين لذائعي الصيت في فرق الدراما .
لم يكن له نشاط من هذا القبيل إطلاقاً . كان منعزلاً ومتعالياً ،
يقضي أوقات فراغه وحده ، إما في القراءة أو في المشي
مسافات طويلة . كنا جميعاً داخلين تلك الأيام ، في كلمة
غردون حتى أبناء العاصمة المثلة . كان ثابتاً في كل شيء ،
لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه المجيب . كانت المدرسون
يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى . خصوصاً مدرسو

اللغة الانجليزية ، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ . »

وصمت الرجل برهة ، فأحسست برغبة شديدة أن أقول انسي أعرف مصطفى سعيد ، وإن الظروف ألفت بي في طريقه ، فقص علي ، ذات ليلة مظلمة قاتظة ، قصة حياته ، وإنه قضى آخر أيامه في قرية مغمورة الذكر عند منحني النيل ، وإنه مات غرقاً ، وربما انتحاراً ، وجعلني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه . لكنني لم أقل شيئاً ، إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد :

قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزاً — كان بالفعل كأنه يسابق الزمن ، وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون ، ارسل هو في بعثة الى القاهرة وبعدها الى لندن . كان اول سوداني يرسل في بعثة الى الخارج . كان ابن الاسكيز المدلل . وكنا جميعاً نحسده ، ونتوقع ان يصير له شأن عظيم . نحن كنا ننطق الكلمات الاسكيزية كأنها كلمات عربية . لا نستطيع ان نسكن حرفين متتاليين . أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه ، ويمط شفتيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها . كان ذلك يملأنا غيظاً واعجاباً في الوقت نفسه . وكنا نطلق عليه ، بخليط من الاعجاب والحقد الانكليزي الأسود . . وعنى ايامنا ، كانت اللغة الانكليزية هي مفتاح المستقبل — لا تقوم لأحد قائمة بدونها . كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية . كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط للـ

الوظائف الحكومية الصغرى - أول ما تخرجت ، اشتغلت بحاسباً في مركز الفانر . وبعد جهد جهيد قبلوا أن اجلس لامتحان الادارة . وقضيت ثلاثين عاماً نائباً مأمور . تصور . وقبل أن احال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً . كان مفتش المركز الانكليزي الها يتصرف في رفعة اكبر من الحزر البريطانية كلها ، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند . وكانوا يتصرفون كالآلهة . يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لحلب العوائد ، ويتذمر الناس مما ويشكون الى المفتش الانكليزي . وكان المفتش الانكليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم . هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا ، نحن أبناء البلد ، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء . وتأكد من كلامي هذا يا بني . ألم تستقل البلاد الآن ؟ ألم تصبح احراراً في بلادنا ؟ تأكد انهم احتضنوا أرذال الناس . ارذال الناس هم الذين تهبأوا لمركز الضخمة ايام الانكليز . كما راثقين ان مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر . كان ابوه من العبايدة ، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان . انهم الذين هربوا سلاطين باشا من اسر الخليفة عبد الله التعايشي ، ثم بعد ذلك عموا رواداً لجيش كوشنر حين استعاد فتح السودان . ويقال ان امه كانت رقيقاً من الجنوب . من قبائل الزاندي أو الباريا ، الله أعلم . الناس الذين ليس لهم أصل ، هم الذين تنوأوا اعلى المراتب ايام الاسكيز .

ركان المأمور المتقاعد يغط في نوم مريح ، حين مر القطار

على خزان سنار ، الخزان الذي بناه الانكليز عام ١٩٢٦ ،
متجهاً غرباً الى الأبيض ، على خط سحدي وحيد ، ممتد عبر
الصحراء ، كأنه جسر من الجبال بين جبلين شرسين ، بينهما
هوة سحيقة ليس لها قرار . مسكين مصطفى سعيد . كانت
مفروضاً أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمأمير . ولكنه
لم يجد حتى قبراً يريح جسده ، في هذا القطر الممتد مليون
ميل مربع . وتذكرت ما قاله ان القاضي قبل ان يصدر عليه
الحكم في الاولد بيلي قال له : « انك يا مسر مصطفى سعيد ،
رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي . ان في تكوينك الروحي
بقعة مظلمة ، لذلك فانك قد بددت انبل طاقة يمنحها الله
للناس : طاقة الحب » . وتذكرت أيضاً انني حين خرجت
من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة ، كان القمر الماحق قد
ارتفع مقدار قاعة الرجل في الاقوى الشرقي ، وانني قلت في
نفسي أن القمر مقلم الاظافر . لا ادري لماذا خيل لي ان
القمر مقلم الاظافر ؟ .

وفي الخرطوم ايضاً ، عرض لي طيف مصطفى سعيد ،
بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد باقل من شهر ، كأنه جن
اطلق من سجنه ، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر ،
ليقول ماذا ؟ لا ادري . كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في
الجامعة ، كنا انا وهو زملاء دراسة في انكلترا . وكان بين
الحاضرين رجل انكليزي يعمل في وزارة المالية . وصل بما
الحديث الى موضوع لزواج المختلط . وتحول الحديث من نقاش

عمومي الى كلام عن حالات محددة . ثم من هم المتزوجون من أوربيت؟ ثم من انكليزيات؟ من هو اول سوداني تزوج اسكيزية؟ ولا " لا. فلان ؟ لا . وفجأة... مصطفى سعيد . قالها الشاب الحاضر في الجمعة ، وعلى وجهه احساس الفرح ذاته الذي لحته بمرحله مأمور امتقاعد . ومضى الشاب يقول ، تحت سماء الخرطوم مرصعة بالنجوم في ارائل فصل الشتاء : « مصطفى سعيد كان اول سوداني تزوج انكليزية ، بل انه كان اول سوداني تزوج أوربيتية طلاقاً . أظن انكم لم تسمعوها به ، فقد تزج من زمن تزوج في اسكتلندا وتجنس دجنسية لاسكيزية . غريب ان احداً هذا لا يذكره ، مع انه قام بدور خطير في مؤامرات الانكليز في السودان في اواخر ثلاثينات انه من اخلص اعوانهم . وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريية في اشرق الاوسط . وكان من مكريتي المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٦ . انه الآن مليونير ، ويعيش كاللوردات في الريف الانكليزي » .

« وسمعت نفسي أقول دون وعي ، بصوت مسموع : مستخدم سعيد ترك ، بعد موته ، ستة أفدنة ، وثلاث بقرات وثوراً ، وحمارين ، واحدى عشرة عنزا ، وخمس نمجات ، وثلاثين نخلة ، وثلاثا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحرارز ، وخمس وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال ، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة ، وبيتاً مكوناً من خمس غرف ، وديوان ، وغرفة واحدة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات

نوافذ خضراء ، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف ولكنه
مثلث كظهر الثور ، وتسعة و سبعة وثلاثين جنبها وثلاثة قروش
وخمسة ملائم نقداً .

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي ،
رأيت في عيني الشاب الجالس قبالي شعوراً واضحاً حياً
ملوساً ، بالذعر رأيت في اتساع حدق العينين ، وارتعاش الجفن
وارتخاء الفك الاسفل . اذا لم يكن خائفاً فلماذا سألني هذا
السؤال : « هل أنت أبني ؟ » .

سألني هكذا دون ان يدري هو الآخر لماذا نطق بهذه
الكلمات الثلاث ، وهو يعلم تمام العلم من أنا . انه لم يكن
زميلي في الدراسة ، لكننا كنا في المجلة في وقت واحد ،
وقد جمعنا مناسبات عدة وشربنا البيرة اكثر من مرة معاً ،
في حانات نابتسبرج . هكذا في لحظة خارج حدود الزمان
والمكان ، تبدو له الاشياء هو الآخر ، غير حقيقية . يبدو له
كل شيء محتملاً . هو ايضاً قد يكون ابن مصطفى سعيد ، او
أخاه او ابن عمه . العالم في تلك اللحظة القصيرة ، بمقدار ما
يطرف جفن العين ، احتمالات لا حصر لها ، كأن آدم وحواء
سقطا لتوهما من الجنة .

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت
وعاد العالم كما كان ، اشخاصاً ذوي وجوه معروفة واسماء
معروفة ومن معروفة ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم
اوائل فصل الشتاء . ضحك هو الآخر وقال : « يا لي من

بحون ! طبعاً انت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وانت
لم نسمع به من قبل في حياتك انني نسيت انكم معشر
الشعراء ، لكم سرحات وشطحات .

وفكرت في شيء من المرارة ، انني في رعم الناس شاعر
- سواء أردت او لم أرد ، لأنني قضيت ثلاثة اعوام انقب في
حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز ، وعدت لادرس الأدب
الحاهلي في المدارس الثانوية قبل ان يرقوني مفتشاً للتعليم
الابتدائي .

وهنا تدخل الرجل الانكليزي وقال نه لا يدري صحة
ما قيل عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات
السياسة الانكليزية في السودان . الذي يعلمه ان مصطفى سعيد
لم يكن اقتصادياً يركن اليه : « انني قرأت بعض ما كتب
عما اسماء اقتصاد الاستعمار ، . الصفة الغالبة على كتاباته ان
احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمي الى مدرسة الاقتصاديين
الغابيايين الذين يخفون وراء ستار التعميم هروباً من مواجهة
الحقائق المدعمة بالارقام . العدالة ، المساواة ، الاشتراكية . .
بحرد كلمات . رجل الاقتصاد ليس كاتباً كتشارلز دكنز ، ولا
مياسياً كرورفلت . انه اداة ، آلة ، لا قيمة لها بدون
الحقائق والارقام والاحصائيات . أقصى ما يستطيع ان يفعله
هو ان يحدد العلاقة بين حقيقة واخرى ، بين رقم وآخر . اما
ان تجعل الارقام تقول شيئاً دون آخر ، فذلك شأن الحكام
ورجال السياسة . الدنيا ليست في حاجة الى مزيد من رجال

السياسة . لا . مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصادياً يوثقه .
وسألته ان كان قد قابس مصطفى سعيد .

« لا . انني لم قبله . كان قد ترك اكسفورد قبل مدة
لكنني سمعت انها هنا وهناك . يظهر أنه كان رير نساء . خلق
لنفسه اسطورة من نوع ما . لرجل الأسود الوسيم ، المدلل في
الأوساط البوهيمية . كان كما يبدو واجهة يعرضها فراد الطبقة
الارستقراطية لذيكر كانوا في العشرينات واوائل الثلاثينات
ينظاهرون بالتححرر . ويقال أنه كان صديقاً للورد فلان ولورد
علان . وكان أيضاً من الاثريين عند اليسار الانكليزي . ذلك
من سوء حظه ، لأنه يقال أنه كان ذكياً . لا يوجد على وجه
الأرض أسوأ من لاقتصاديين ليساريين ، حتى منصبه الاكاديمي
— لا أدري تماماً هذا كان — بخيل إلى أنه حصل عليه لأسباب
من هذا النوع . كأنهم أرادوا أن يقولوا : أنظروا كم نحن
متسامحون ومتحرون ! هذا الرجل الافريقي كأنه واحد
من ! أنه تزوج أبنتاً ويعمل معنا على قدم المساواة ، هذا
اسوع من الاوربيين لا يقل شراً ، لو تدرون ، عن الهندين
الذين وُمنون بتفوق الرخص الأبيض في جنوبي افريقيا وفي
الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة . نفس الطاقة العاطفية
المنطرفة ، تتجه إلى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، لو انه
فقط تفرغ للعمل لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس ،
ولكنكم قد سمعتم به هنا . كان قطعاً سيهود وينفع بعلمه هذا
البلد الذي تتحكم فيه الخرافات . ها أنتم ، لأن تؤمنون بخرافات

من نوع جديد. خرافة التصنيع ، خرافة التأميم الوحدة العربية خرافة الوحدة الافريقية . انكم كالأطفال تؤمنون ان في حواف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بمعجزة ، وستحلون جميع مشاكلكم ، وتقدمون فردوساً . أوهام . أحلام يقظة . عن طريق الحقائق والارقام والاحصائيات ، يمكن ان تقبلوا واقعكم وتتمايشوا معه وتحاولوا التعبير في حدود طاقاتكم . وقد كان نوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دوراً لا بأس به في هذا السبيل ، ولو انه لم يتحول إلى مهرج بين يدي حفنة من الانكليز المعتمدين .

وبينة ابري منصور يفند آراء رتشارد ، أخذت أنا إلى أفكاري ما جدوى النقاش ؟ هذا الرجل - رتشارد - هو الآخر متعصب . كل أحد متعصب بطريقة أو بأخرى . لعلنا نؤثر بالخرافات التي ذكرها ، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة ، خرافة عصرية ، هي خرافة الاحصائيات . ما دمنا سنؤمن به ، فليكن إلهاً قادراً على كل شيء . أمّا الإحصائيات ! رجل الأبيض ، مجرد به حكمنا في حقته من تاريخنا ، سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا باحساس لاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف . مصطفى سعيد قال لهم : « انني جئتكم غازياً . عبارة ميلودرامية ولا شك . لكن مجيئهم ، هم أصاً ، لم يكن مأساة كما تصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون هم . كان عملاً ميلودرامياً سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة عظمى وسمعت منصور يقول لرتشارد : « لقد نقلتم انينا مرض

اقتصادكم الرأسمالي . ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات
الاستعمارية نذفت دماءنا ومسا تزال ؟ ، وقال له رتشارد :
« كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا . كنتم
تشكون من الاستعمار ، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار
المستتر . يبدو أن وجودنا ، بشكل واضح أو مستتر ،
ضروري لكم كالماء والهواء . ولم يكونا غاضبين . كنا يقولان
كلاماً مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء ،
تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار .

لكن أرجو ألا يتبادر الى اذهانكم ، يا سادتي ، ان مصداق
 سعيه أصبح هوساً يلارمني في حلي وترحالي . كانت أحياناً تر
 أشهر دون ان يخطر على بالي انه مات على اي حال ، غرقاً ،
 أو انتحاراً ، الله وحده يعلم . آلاف الناس يرقون كل يوم .
 ولو وقفنا لنتمعن لماذا مات كل منهم ، وكيف مات . ماذا
 يحدث لنا نحن الاحياء ؟ الدنيا تسير ، باختيارنا أو رغم
 انوفنا . وأن كملايين البشر ، امير ، المحرك بحكم العادة في
 اعداب ، في قافلة طويلة ، تصعد وتنزل ، تحط وترحل .
 والحياة في هذه القافلة ليست كلها شراً . نعم ولا شك تدركون
 ذلك . قد يكون السير شاقاً بالنهار ، البوادي تترامى امامنا
 كبجور ليس لها ساحل . نتصبب عرقاً . ونجف حلقوا من
 الضمأ . ونبلع الحد الذي نظن ان ليس بعده متقدم . ثم تغيب
 شمس . ويبرد الهواء . وتألق ملايين النجوم في السماء . نطعم
 ونشرب حينئذ . ويغني مغني الركب . بعضنا يصلي جماعة
 وراء الشيخ ، وبعضنا يتحلق حلقات يرقصون ويغنون

ويصفقون . وفوقنا سماء دافئة رخيمة . واحياناً نسري بالليل
ما طاب لنا السري ، وحين يبين الخط الأبيض من الخط
الأسود نقول : « عند نبلج الصبح يحمد القوم السري » .
وإذا كان السراب حديماً يخسناً ، وإذا كانت رسوم المجموعة
بفعل الحر وبعض نمر احيناً بأفكار لا أساس لها من الصحة
فلا جرم . اشباح الليل تتبخر مع الفجر ، وحمى النهار تبرد مع
نسيم الليل . هل ثمة وسيلة أخرى غير هذه ؟ هكذا كنت
اقضي شهرين كل سنة في تلك القرية الصغيرة عند مدحى
السل . النهر بعد أن كان يجري من الجنوب إلى شمال ،
ينحني فجأة في زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجري من
الغرب إلى الشرق . المحرى هنا منمع وعميق ، ووسط الماء
جزر صغيرة منحصرة ، تحوم عليها طيور بيضاء . وعلى الشاطئ
عادت كثيفة من النخل ، وسوق دائرة ، ومكة ماء من
حين لآخر . الرجال صدورهم عارية ، يلبسون سراويل طويلة ،
يرقصون أو يزرعون حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط
النيل يرفعون قاماتهم ، ويلتفتون إليهم برهة ثم يعودون إلى
ما كانوا فيه . هنا تمر على هذا المكان وقت الضحى ، مرة في
الاسبوع ، وما تزال في طلال النخل المنعكسة على الماء بقية
تتكسر حين يهزها الموج الذي تحدثه محركات الباخرة .
وتتطلق صارة مدحوقة ، سبسمها أهلي ولا شك في دورهم
وهم يشربون قهوة الضحى . من بعيد تبدو الحطة . رصيف
أبيض عليه طاوور من شجر الجيز . وتلمح على الشاطئ حركة

واسحة . بعض الناس على الخير وبعضهم على الأقدام ، وقوارب
ومراكب شراعية تتحرك من الشاطئ المقابل لمحطة . تدور
الباخرة حول نفسها ، لكي لا تكون المحركات في مجرى التيار ،
ويكون في استقامتها جمهور منوص من الرجال والنساء . ذلك
أي وأرثك أعمامي وأولاد أعمامي وقد ربطوا حميرهم في
شجر الخير . لا يفصل صباب بيبي وبينهم هذه امرة ، فأه
قدم من الحرصوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم أكثر من سبعة
شهر . انني أراهم بعين رقيقة . جلابيهم نظيفة ولكنهم
غير مكوية ، وعمانهم أكثر بيضاء من جلابيهم ، شواربهم
تتفاوت طوفاً وقصر ، سواداً وبيضاء . بعضهم له لحى ،
وبعض ليس له لحى ، أهلكوا حلقهم . بين حميرهم حمارة سوداء
منهم من قس . يطربون إلى الدحرة دون الاكثرث إذ تلقى
منهم . ويزدحم ليس عند مدخلها . انهم ينتصرونني
في حارج ، لا يهرولون للملاقاة . ويصافحونني ويصافحون
روحني على عجل ، ولكنهم يطربون الصفرة قليلاً ، يتساوون
حلم على يديهم ، ربما تحملنا الخير إلى الحي . هذا حال منذ
نسب تلميذاً في مدرسة ، لم انقطع إلا في غيبي الضويلة تلك
سبقنا حديثكم عنها . وفي الطريق إلى الحي أسأهم عن
حمارة السود ، فيقول لي : « اعرابي غش عمك واخذ منه
حمارة البيضاء التي تعرفها وفوقها حمة جنيهاً ايضاً » . ولا
تري أي اعمامي غش الاعرابي ، حتى اسمع صوت عمي
عند الكريم يقول « عليّ الطلاق هذه اجمل حمارة في البلد

كلها . هذه حواد وليست حمارة . اذا شئت وجدت من يعطيني فيها ثلاثين جنيهًا » . ويضحك عمي عبد الرحمن ويقول : « اد كانت جوداً فهي جواد عاقر . لا خير في حمارة لا تلد » . وسألهم عن محصول الثمر هذا لعام وأنا علم احابتهم سداً : « لا خير فيه » . يقولون ذلك بصوت واحد وكل سنة الاجابة نفسها ، وأنا ادرك أن الامر خلاف ما يزعمون . ونظر بدياء من لصوص الاحمر على ضفة النيل في منتصف قنطرة ، وسألهم عنه ، فيقول عمي عبد المنان شخانة . لهم حول لا يستطيعون بدائها . حكومة كلام فارغ . واقول له انني كنت هنا منذ سبعة اشهر فقط ، ولم يكونوا قد بدأوا بدائها بعد . لكن هذا لا يثنيني عمي عبد المنان ، فيقول : « كل الذي دخلحون فيه يجيئون النصارى كل عامين أو ثلاثة يجباهيرهم ولواريههم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويشتغل فلان . كما مرنا حين بيم الانكليز من هذه الدوشة » . والفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون : « عيش الحزب لوصي الديمقراطية لاشتركي » . من هؤلاء الناس الذين يطلق عليهم « الملاحون » في الكتب ألو قلت لجدي أن الثورات تصعب سمها ، والحكومات تقوى وتقع من أحقاد ، لضحك . الفكرة تبدو شاذة فعلاً ، كما ان حيلة مصطفى سعيد وموته في مكان مثل هذا يبدو شيئاً صعباً تصديقه . مع طفو سعيد كان يحضر صلوات في المسجد بانتظام ماذا كان يبذل في تمثيل ذلك الدور المضحك ؟ هل جاء الى هذه القرية النائية

يطلب راحة اقبال ؟ لعل الاجابة في تلك الغرفة المستطيلة ذات
الموافد الخضراء . ماذا أتوقع ؟ هل أتوقع أن أجده جالساً على
كرسي وحده في الظلام ؟ أم أتوقع ان اجده معلقاً من رقبته
بجبل يتدلى من السقف ؟ والرسالة التي تركها في ظرف مختوم
بالشمع الاحمر ، متى كتبها ؟

« انني اترك روجي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا في
«منك ، وأنا أعلم انك ستكون أميناً على كل شيء . روجي
تعلم بكل مالي ، وهي حرة التصرف . لي واثق بحكمتها .
ولكنني أطلب منك أن تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد
باتعرف اليك كما ينبغي - أن تشغل أهل بيتي برعايتك وأن
تكون عوناً ومشيراً ونصيحاً لولدي ، وأن تجنبهما ما استطعت
مشقة السفر . جنبها مشقة السفر . وساعدهما أن ينشأ نشأة
عادية وبعملاً عملاً مفيداً . وأه أترك لك مفتاح عرقي احاصة
ولعلك تجد فيها ما تبحث عنه . أنا أعلم انك تعاني من رغبة
استطلاع معرطة بشائي ، الامر الذي لا اجده له مبرراً .
فحياتي مهما كان من امرها ليس فيها عطة أو عبء ل احد . ولولا
ادراكى ان معرفة أهل القرية بماضي كان سيعوقني عن مواصلة
الحياة التي اخترتها لنفسى بينهم ، لما كان ثمة مبرر للكتمان .
وانت في حل من العهد الذي قطعته على نفسك تلك الليلة .
فتحدث ما شئت . واذا لم تستطع ان تقوم رغبة الاستطلاع
في نفسك ، فستجد في تلك الغرفة ، التي لم يدخلها أحد عيري
من قبل ، قصاصات ورق وشذوراً متفرقة ومحاولات لكتابة

مذكرات وغير ذلك . أرجو على أي حال أن تساعدك على
توجيه الساعات التي لا تجدد وسيلة أفضل لقضاها . وأنا
أترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولدي مفتاح الغرفة
وتساعدهما على ادراك حقيقة أمري . انه يعني ان يعلم اي
نوع من الناس كان أبوما - اذا كان ذلك ممكناً أصلاً - وليس
هدفي ان يحسنا بي الظن ، حسن الظن هو آخر ما أرمي اليه -
ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتها ، ولكن في
وقت لا تكون المعرفة فيه خطراً . اذا نشأ مشبعين بهواء
هذا البلد وروائح الوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريت
فيضائاته وحصاداته وزراعاته فان حياتي ستحتل مكانها
الصحيح كشيء له معنى الى جانب معان كثيرة خرى اعنى
مدلولاً . لا أدري كيف يفكران في حينئذ . قد يحسان نحوي
بالراء ، وقد يحولانني بخيالهما الى بطل . هذا ليس مهما . المهم
ان حياتي لن تجيء من وراء الجهول كروح شريرة تلحق بها
الضرر . وكما كنت اتقن أن أظل معهما ، اراقبهما يكبران امام
عيني ويكوفان على لأقل مبرراً لوجودي . اني لا أدري اي
العملين أكثر أمانية ، بقائي أم ذهابي . ومهما يكن فانه لا
حيلة لي ، ولعلك تدرك قصدي اذا عدت بداكرتك الى ماقلته
لك تلك الليلة . لا جدوى من خداع النفس . ذلك النداء
البعيد لا يزال يتردد في أذني . وقد ظننت أن حياتي وزواجي
هنا سيسكتانه . ولكن لعلني خلقت هكذا ، أو ان مصيري
هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا أدري . انني اعرف بعقلي

ما يجب فعله ، الامر الذي جربته في هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء . ولكن اشياء مبهمه في روحي وفي دمي تدفني الى مناطق بعيدة تترأى لي ولا يمكن تجاهلها . واحسرتي اذا نشأ ولداي ، احدهما او كلاهما ، وفيها جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل . انني احملك الامانة لانني لمحت فيك صورة عن جدك . لا ادري متى اذهب يا صديقي ولكنني أحس أن ساعة الرحيل قد أزفت ، قوداعاً .

اذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية ، فانه يكون قد قام بأعظم عمل ميلودرامي في رواية حياته . واذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح ، فان الطبيعة تكون قد مننت عليه بالنهاية التي كان يريد لها لنفسه . تصور . عز الصيف في شهر يوليو العنيد . النهر اللامبالي فاض كما لم يفيض منذ ثلاثين عاماً . الضلام يصهر عنصر الطبيعة جميعاً في عنصر واحد محايد ، أقدم من النهر ذاته وأقل منه اكثرثاً هكذا يجب ان تكون نهاية هذا البطل . غا هل هي فعلا النهاية التي كان يبحث عنها لعله كان يريد لها في الشمال ، الشمال الاقصى ، في ليلة جليدية عاصفة ، تحت سماء لا نجوم ها ، بين قوم لا يعنهم أمره . نهاية الثغرة الفاتحين . ولكنهم ، كما قالوا ، تأمروا ضده ، الحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها . هكذا قل : « رأى الحلفون أمامهم رجلاً لا يريد أن يدافع عن نفسه . رجلاً فقد الرغبة في حياة . انني ترددت في تلك الليلة حين شققت جين في أذني . « تعال معي تعال » . كانت

حياتي قد اكتملت ليلتها ، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء . ولكنني
 ترددت ، وخفت في اللحظة الحاسمة . وكنت أرجو أن تمنحني
 الحكمة ما عجزت أنا عن تحقيقه . وكأننا أدركوا قصدي ،
 فصمموا الا يعطوني آخر أمنية لي عندهم . حتى الكولونيل
 همد الذي كنت أتوسم فيه الخير ، ذكر زيارتي لهم في لفربول ،
 وانني تركت في نفسه أثراً حسناً . قال انه يعتبر نفسه انساناً
 متحرراً ليس عنده تحيز ضد أحد . ولكنه رجل واقعي ،
 وقد كان يرى أن زواجاً مثل ذلك لن ينجح . وقال أيضاً
 ان ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية في اكسفورد ،
 وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الاسلام . وهو لا يستطيع
 أن يحزم اذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابها ، أو
 لاها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها . كانت آن
 ابنته الوحيدة ، وقد عرفت لها وهي دون العشرين ،
 فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجاً يكون جسراً بين
 الشمال والجنوب ، وحولت جذوة التطلع في عينيها الخضراوين
 الى رماد . ومع ذلك يقف ابوها وسط الحكمة ويقول بصوت
 هاديء انه لا يستطيع أن يحزم . هذا هو العدل واصل
 اللعب ، كقوانين الحرب والحياد في الحرب . هذه هي القوة
 التي تلبس قناع الرحمة ، المهم انهم حكموا عليه بالسجن ،
 سبع سنوات فقط ، ورفضوا أن يتخذوا القرار الذي كان
 عليه هو ان يتخذه بمحض ارادته . ويخرج من السجن ، وينشرد
 في أصقاع الارض ؛ من باريس الى كوبنهاجن الى دلهي الى

باكوك ، وهو يحاول التسوية . وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل ، ولا يستطيع المراء ان يجزم هل كانت اعتباراً أو انه أسدل الستار بمحض ارادته . انما أنا لم أجيء الى هنا لافكر في مصطفى سعيد ، فها هي ذي بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب بأعناقها أمامنا ؛ وحميرنا تحت السير لانها شمت بخياشيمها رائحة ابرسيم والعلف والماء . هذه البيوت على حافة الصحراء ، كأن قوماً في عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل . هنا تبدأ أشياء . وتنتهي أشياء . ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتي من ناحية النهر ، وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم مليء بالأكاذيب . أصوات الناس والطيور والحيوانات تقتناهى ضعيفة الى الاذن كأنها وساوس ، وطقطقة مكنة الماء المنتظم تقوي الاحساس بالمستحيل . والنهر ، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية ، يجري نحو الشمال ، لا يلوي على شيء ، قد بعقرصه جبل فيتجه شرقاً ، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غرباً ، ولكنه أن عاجلاً أو آجلاً يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال .

وقفت عند باب دار جدي في الصباح - باب ضخم عتيق من خشب الحراز ، لا شك انه استوعب حطب شجرة كاملة ، صنعه ود البصير ، سهندس القرية الذي لم يتعلم النجارة في مدرسة ، كما كان يصنع عجلات السواقي وحلقاتها ، وأيضاً يحبر العظام ، ويكوي ويحجم ، ويتخصص كذلك في نقد الخير ، قل أن يشتري أحد من أهل البلد حمارة دون مشورته . ود البصير لا يزال حياً إلى يومنا هذا ، ولكنه لم يعد يصنع مثل باب بيت جدي ، بعد أن أكتشفت الأجيال اللاحقة من أهل ابلد أبواب خشب الزان وأبواب الحديد ، يجلبونها من ام درمان . والسواقي أيضاً . بار سوقها حين جاءت مكناث الماء . وسمعتهم بقهوة هون ، فميزت ضحكة جدي النحيلة الحبيسة المنطلقة حين يكون على سجيته ، وضحكة ود الرئيس التي تخرج من كرش مملوء بالطعام دائماً ، وضحكة بكري السقي تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذي يكون موجوداً فيه ، وضحكة بنت مجذوب القرية المسترجلة . تخيلت جدي جالساً

على فروة صلاته وفي يده مسبحة من خشب الصندل ،
تدور في حركة دائبة كقواريس الساقية . وبنت مجذوب
وود الرئيس وبكري ، أصدقاؤه القدامى ، يجلسون على تلك
الأسرة الوطنية ، التي لا تعلق أرجلها عن الأرض أكثر من
شبرين . ارتفاع السرير عن الأرض ، في رعم جدي ، من
الغرور ، وقصره من التواضع .. بنت مجذوب متكئة على
كوعها ، وفي اليد الأخرى سيجارة . ود الرئيس كأنه يخرج
الحكايات الخبيثة من أطراف شاربيه . وبكري يجلس وحسب .
هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ،
ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح ، قدمة على
أطراف الحقل تماماً ، تكون امتداداً له . وهذا واضح من
شجيرات الطلع والسنط النامية في فناء الدار والنباتات التي
نمت في الحيطان نفسها حيث تسرب إليها الماء من الأرض
المزروعة . وهي دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت
هبتها هذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة مختلفة
الأحجام ، بنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة ،
أما حسب الحاجة إليها أو لأن حدي توفر له شيء من المال
لم يجد وسيلة أخرى ينفقه فيها . غرف يؤدي بعضها إلى
بعض ، بعضها لها أبواب وطنية لا بد أن تنحني كي تدخلها
وبعضها ليست لها أبواب إطلاقاً ، بعضها لها نوافذ كثيرة ،
وبعضها ليس لها نوافذ . حيطانها ملساء مطلية بمادة هي
خليط من الرمل الحشن والطين الأسود وزبالة البهائم ،

وكذلك السطوح ، والأسقف من جذع النخيل وخشب السنط
وجريد النخيل . دار متاهة ، باردة في الصيف ، دافئة في
الشتاء . إذا نظرت إليها من الخارج ، دون عطف ، أحسست
بها كياناً هشاً لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن
بشيء كالمعجزة .

ودخلت من باب الحوش ، ونظرت إلى اليسار واليمين في
الفناء الواسع . هنالك تمر نشر على بروش ليجف . وهنالك
بصل وشطة . وهنالك أكياس قمح وفول وبعضها خيطة
أفواه وبعضها مفتوح . وفي ركن عنز تأكل شعيراً وترضع
مولودا . هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، إذا اخضر
الحقل اخضرت ، وحين يحتاج القمح الحقول يحتاجها هي
أيضاً . وأشم تلك الرائحة التي يمتاز بها بيت جدي ،
خليط من روائح متناثرة ، رائحة البصل والشطة والتمر والقمح
والفول واللوبة والحلبة ، أضف إليها رائحة البخور
الذي يعبق دائماً في محرم الفخار الكبير . رائحة تذكرني
بتقشف جدي في العيش ، وترفه في لوازم صلاته . الفروة التي
يصلي عليها ، وحين يشتد البرد يستعملها عطاء ، عبارة عن
حمود ثلاثة نمور مخيطة في جلد واسع . وابر يق الصلاة من
التحاش عليه تصاور ونقوش ، وله طشت من نحاس أيضاً .
وهو يفتخر خاصة بمسبحته لأنها من خشب الصندل ، ويداعب
حباتها ، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها . وكان إذا غضب
من أحد أحفاده ، ضربه بها على رأسه ، يقول ان ذلك بطرء

الشيء لان . وهذه الأشياء جميعاً ، مثل غرف داره ، والنخل
في حقله ، لها تاريخ قصه علي جدي مراراً وتكراراً ، في كل
مرة يحذف شيئاً ويضيف شيئاً

وقمت عند باب الغرفة وأنا أستمري، ذلك الإحساس
الغريب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر.
إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال
مرحوداً أصلاً على ظاهر الأرض . وحين أعانقه أستنشق
رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في
المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيل
ضمناً ، يقوم جسراً بيني وبين الساعة القلقة التي لم تتشكل
بعد ، الساعات التي استوعبت أحداثها ومضت ، وأصبحت
لنبت في صرح له مدلولات وأبعاد . نحن بمقاييس العالم
الصناعي الأوربي ، فلاحور فقراء ، ولكنني حين أعانق جدي
أحس بالغنى ، كأني نعمة من دقات قلب الكون نفسه .
له ليس شجرة سنديان شتية وارفة الفروع في أرض منت
عليها لطيفة بالماء والخشب ، ولكنه كشجيرات السيل في
صحاري السودان ، سميكة اللحي حادة الأشراك ، تقهر
لموت لأنها لا تسرف في الحياة . وهذا وجه العجب . انه
عشر أصلاً - رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد
احياء . وهذا هو ذا الآن يقتر عمامه المذبة ، أسنانه جميعاً
في فمه ، عيناه صغيرتان باهتان نحسب أنها لا تريان ولكنه
ينظرهما في حلقة الليل ، جسمه الضئيل منكش على ذاته ،

عظم وعمود واحد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة
من الشحم ، يفقر فوق الحمار شيطاً ، ويمشي في غبش الفجر
من بيته إلى الجامع .

مسح حدي بطرف ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من
شدة الضحك ، وبعد أن أمهلوني ريثما أستقر في مجلسي معهم ،
قال جدي : « والله حكيتك حكاية يا ود الرئيس ، . وكان
هذا إيذاناً لود الرئيس بأن يستمر في القصة التي قطعها دخولي
عليهم . « وبعد ، يا حاج أحمد ، أركبت لبنت أممي على
الحمار وهي تفلنص وتتولى وبالقوة جردتها من جميع ثيابها
حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، كانت فرخة عذبة من
جواني بحري بلغت توها - النهد يا حاج أحمد كأنه طبنجة
والكفل إذا طوقته بذراعيك لا تصل حده . وكانت مدهنة
ومدلكة جلدها يلعب في ضوء القمر وعطرها يدوح العقل .
ونزلت بها إلى منطقة رملية وسط الذرة . ولما قمت عيها
سمعت حركة في الذرة وصوتاً يقول : من هناك؟ يا حاج أحمد ،
جنون الشباب ليس مثله جنون . فكرت بسرعة . وعملت
انني عفريت . وأخذت أصرخ بأصوات شيطانية وأنثر الرمل
وابرطع ، فذعر الرجل وهرب . إنما النكتة أن عمي عيسى
كان قد قفى أثري منذ خطفت لجارية من بيت العرس حتى
وصلنا إلى بقعة الرمل . ولما رأى أنني عملت عفريت وقف
يتفرج . وثاني يوم في الصباح الباكر ذهب إلى والدي رحمة الله
عليه وقص عليه القصة كلها ، وقال له : ابنك هذا شيطان

رجيم ، وإذا لم نجد له زوجة في هذا النهار أفسد البلد وسبب
لنا فضائح لا أول لها ولا آخر . وفعلوا عقدوا لي في نفس
ليوم على بنت عمي رجب . الله يرحمها ، ماتت في أول
ولادة . وقالت له بنت مجذوب وهي تضحك بصوتها
برجالي المبحوح من كثرة التدخين : « ومن يومها وأنت
كب وتنزل كالك فعل الخير »

فقال لها ود الرئيس : « من احد يعرف حلاوة هذا
شيء اكثر منك يا بنت مجذوب ؟ امك دفنت ثمانية ازواج ،
وآن وانت عجوز كركبة لو وجدت لما قلت لا » . وقال
حدي : « سمعنا أن غنج بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل »

واشعلت بنت مجذوب سيجاره وقالت : « عليّ الطلاق
، حاج احمد ، كنت حين يرقد زوجي بين فغدي أصرخ
سرخاً تجفل منه البهائم المربوطة في مرايحها في الساقية » .
وكان بكري قل ذلك يضحك ولا يقول شيئاً ، فقال :
« حدثينا يا بنت مجذوب . أي أزواجك كانت احسن ؟ »
فقالت بنت مجذوب على الفور : « ود البشير » . فقال بكري :
« ود البشير الكحيان التمان ؟ كانت العز تأكل عشاء » .

ونفضت بنت مجذوب رماد السيجارة على الارض بحركة
مسرعية بأصابعها وقالت : « عليّ الطلاق ، كان عنده شيء
مثل الوئد حين يدخله في احشائي لا اجد أرضاً تسعني . كان
يرفع رجلي بعد صلاة العشاء ، واظلل مشبوحة حتى يؤذن

آدن لفجر . وكان حين تأتية الحاة يشخر كالشور حين يذبح
وكان دائماً حين يقوم من فوقه يقول : هالله الله يا بنت
مجنوب . فقال لها جدي : « لا عجب انك قتته في عز
اشباب » . فضحكت بنت مجنوب وقالت : « قتله جله .
هذا الشيء لا يقتل احداً » .

كانت بنت مجنوب امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة
البيضاء ، ما زال فيها الى الآن وهي تقارب السبعين بقايا
جدها . وقد كانت مشهورة في البلد ، يتسابق الرجال والنساء
على السواء لسامع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج . وكانت
تدخن السجير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل .
ويقول ان امها كانت ابنة احد سلاطين الفور . وقد تزوجت
عدداً من خيرة رجال البلد ، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة
بسيطة قليلة . وقد انجبت ولداً واحداً وعدداً لا يحصى من
بنات اشهرن بجمالهن وعدم تحرجهن في الحديث ، مثل امهن .
ويروى ان احدى بنات بنت مجنوب تزوجت رجلاً لم
يكن أمها راضية عنه . وحملها وسافر بها . ولما عاد بعد نحو
سنة عام أُرِد أن يقيم وليمة يدعو اليها اقارب زوجته . فقلت
له الزوجة : « ان امي لا تتخرج في كلامها ومن الخير ان
ندعوها وحدها » . وفعلوا ذبحوا وأولوا لها . وبعد ان طعمت
وشرت قالت لانتها وروجها بسمع : « يا آمنة . هذا
الرجل لم يقصر في حقك . فمسكنك حسن وملبسك حسن ؛
وقد ملأ لديك ورقبتك ذهباً . ولكن لا يبدو على وجهه انه

يقدر على اشباعك في الفراش . فاذا أردت الشبع الصحيح
فأنا اعرف لك روجاً اذا جاءك لا يتركك حتى تهق روحك
ولما سمع الزوج هذا الكلام غضب غضباً شديداً وطلق زوجته
ثلاثاً في الحين .

وقالت بنت مجذوب لود الرئيس : « ما بالك ، لك عامان
وانت مكتف بزوجة واحدة ؟ هل ضعفت همتك ؟ » .

وتبادل ود الرئيس وجدي نظرات لم أفهما الا فيما بعد ،
وقال : « الوجه وجه شيخ والقلب قلب شاب . هل تعرفين
أرملة او ثيباً تصلح لي ؟ » .

وقال بكري : « النصيحة لله يا ود الرئيس . انت لم تعد
رجل زواج ، انك الآن شيخ في السبعين وأحفادك صار لهم
أولاد . الاتسحي ، لك كل سنة عرس ؟ الآن يلزمك الوقار
والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى » .

ضحكت بنت مجذوب وضحك جدي لهذا القول ، وقال
ود الرئيس في غضب مصطنع : « ماذا يفهمك نت في هذه
الامور ؟ انت وحاج احمد كل واحد منكم اكتفى بامرأة
واحدة ولما ماتا وتركنا كما لم تجدوا المرأة على الزواج .
حاج احمد هذا طوي اليوم في صلاة وتسبيح كأن
الحنة خلقت له وحده . وأنت يا بكري مشغول في جمع المال
إلى أن يريحك منه الموت . الله سبحانه حلل الزواج وحلل
الطلاق وقل ما معاد خدوهن ، حسان أو وارقوهن ، حسان .

وقال في كتابه العزيز : النّسوان والبنون زينة الحياة الدنيا .
وقلت لود ريس ان القرآن لم يقل « النّسوان والبنون »
ولكنه قال « امال والنّسوان » . فقال : « مهيا يكن » لا
توجد لذة أعظم من لذة النّكاح » .

وملّس ود الريس شارببيه المقوسين بعناية إلى أعلى ،
طرفاهما كحد الإبرة ، ثم أحد مسح بيده اليسرى لحية
الغزيرة البيضاء التي تلبس وجهه من الصدغ إلى الصدغ ،
ويتنافد لونها الأبيض الناصع من سمرة وجهه كلوب الخلد
المدبوغ ، فكان اللحية شيء صناعي ألصق بالوجه . ويختلط
بياض اللحية دون مشقة ببياض العمة الكبيرة ، مقيماً إطاراً
صارخاً يبرر أهم معالم الوجه : العيبين الجميلتين الذكيتين ،
والانف المرفف الوسيم . وود الريس يستعمل الكحل متذرعاً
بان الكحل سنة ، لكنني اظن انه يفعل ذلك زهواً كان في
مجموعه وجهاً جميلاً ، خصة اذا قارنته بوجه حدي الذي ليس
فيه شيء يميزه ، ووجه بكري وهو كالبطيخة المكرمنة .
وواضح أن ود الريس يدرك ذلك ، وقد سمعت انه كان في
شبابه آية في الحسن ، وان قلوب الفتيات كانت تخفق بحبه
قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . كان كثير لزواج والطلاق
لا يعنيه في المرأة انها امرأة ، يأخذهن حيثما اتفق ، ويحب
اذا سئل : « الفعل غير عواف » . راذكر من روحاته
دنقلاوية من الخندق ، وهمدونية بن الغضارف ، وأثيوبية

وجدها تخدم عند ولده الأكبر في الخرطوم ، وامرأة من نجديين
 عادها في حجته الرابعة . ولما سئل كيف تزوجها قال انه
 اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين بور سودان وجدة وتصادق
 معها . ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات .
 وقال له وهو يختصر : « أوصيك بزواجي حيراً » . ولم يجد
 حيراً من رواجها . عاشت معه ثلاثة أعوام ، وهو وقت
 طويل بحساب ود الرئيس . وكان فرحاً بها ، وأعظم سروره
 انها كانت عاقراً . وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها ،
 ويقول : « من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج » . وأثناء
 حياته معها تزوج امرأة من الكبابيش ، عاد بها في زيارة له
 الى حمرة الشيخ . لكن المراتين لم تطبقا حياة معاً ، فطلق
 علانية ارضاء للكباشية ، ولكن الكباشية ، بعد ذلك بقليل
 هجرته وهربت الى أهلها في حمرة الشيخ .

وضربني ود الرئيس بكوعه في جني وقال : « قالوا
 سوان النصراني شيء فوق لتصور » . فقلب له : « لأدري » .

فقال : « اي كلام هذا ؟ شاب مثلك في عز الشباب
 يعيش سبع ستين في بلاد الهلك والرنك وتقول لا أدري » .

سكت ، فقال ود الرئيس « قبيلكم هذه لا خير فيها .
 انتم رجال المرأة الواحدة - ليس فيكم غير عمك عبد الكريم
 ذلك هو الرجل » .

كنّا بالفعل معروفين في البلد بأننا لا نطلق زوجاتنا ولا

ن تزوج عشرين ، وكان اهل البلد يتندرون عليها ويقولون اننا
نخاف من زوجتنا . إلا عمي عبد الكريم - كان مطلقاً
مزواجاً ، وزانياً أيضاً .

وقالت بنت مجذوب : « حريم النصارى لا يعرفن لهذا
الشيء كما تعرف له بنات البلد . نساء غلف ، الحكاية عندهن
كشرب الماء . بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريجة وتلبس
الفركة القرمصية . زحين ترقد على البرش الاحمر بعد صلاة
العشاء وتفتح فخذيها ، يشعر الرجل كأنه ابو ريد الهلالي .
الرجل الماعنده همة يصيح له همة » .

وضحك جدي وضحك بكري وقال ود الريس : « دحك
من بنات البلد يا بنت مجذوب . النسوان البرانيات ، هؤلاء
هن النساء » .

وقلت بنت مجذوب : « عقلك هو العراي » . وقال جدي :
« ود الريس يحب النسوان الغير مطهرات » .

وقال ود الريس : « علي اليمين يا حاج احمد ، لو دقت
نساء الخبش والفلاقة كنت رميت مسجعتك . وتركت صلاتك
ما بين اخاذهن كأنه الصحن المكفى ، صاع سليم ، بكامل
خيره وشره . عنده هنا يقطعونه ويتركونه مثل الارض
الحلاء » .

وقال بكري : « حثانة من شروط الاسلام » . وقال
ود الريس : « ي اسلام هذا ؟ سلامك بنت و اسلام حاج

احمد ، لانكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم . الفلانة
والمصريون وعرب الشام . اليسرا مسفين مثلنا ؟ لكنهم ناس
يعرفون الاصول . يتركون نساءهم كما خلقهن الله . اما نحن
فنجزهن كما تجز البهيمة » .

وضحك جدي حتى اسقط ثلاث حبات من مسبحته مرة
واحدة دون وعي ، وقال : « المصريات ، مثلك لا يقدر
عليهن » . قال له ود الرئيس : « وما ادراك اذت بالمصريات ؟ »
فقال بكري بالنيابة عن جدي : « هل نسيت ان حاج احمد
سافر الى مصر سنة ستة واقام فيها تسعة اشهر ؟ » .
وقال جدي : « مشيت على قدمي ؛ ليس معي غير المسبحة
والابريق » .

فقال ود الرئيس : « ومذا فعلت ؟ عدت كما ذهبت
بالمسبحة والابريق . علي اليمين ، لو كنت محلك لما عدت فدرغ
اليدين » .

فقال جدي : « اظنك كنت رجعت ومعك امرأة . هذا
هو كل همك . انا رجعت ومعني المال فاشتريت الأرض وعمرت
الساقية وطهرت اولادي » .

وقال ود الرئيس : « بالله يا حاج احمد ، هل ذقت الشيء
المصري ؟ » .

كانت حبات المسبحة طول الوقت تنفلت بين اصابع جدي
طالعة نارية كأنها دولا ب الساقية . لكن الحركة توقفت فجأة

ورفع جدي وجهه الى السقف وفتح فمه . ولكن بكري كان
اسبق منه فقال : « انت يا ود الرئيس محنون . رجل كبير
لكن ما عندك فهم . النسوان نسوان في مصر أو السودان
أو العراق أو واق ، الواق . السوداء والبيضاء والحمراء كلهن
سواسية » .

ولم يستطع ود الرئيس من شدة دهشته ان يقول شيئاً .
ونظر الى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها . وقال جدي :
« الحق لله انني كدت اتزوج في مصر . المصريون ناس طيبون
ويحفظون العشرة . والمرأة المصرية تعرف قيمة الرجل . تعرفت
برجل تقي في بولاق كنا نلتقي دائماً في صلاة الفجر في مسجد
ابو العلاء . دخلت بيته وتعرفت على اهله كان ابو بنات
عنده ست بنات كل واحدة تقول للقمر قوم وانا قعد محلك .
بعد مدة قال لي : يا سوداني انت رجل مندين وتحفظ العشرة
خليني ازوجك بنتاً من بناتي . الحق لله يا ود الرئيس نفسي
مالت الى الننت الكبيرة . لكن بعدها بقليل جاني تلفراف
ب وفاة المرحومة امي فسافرت في الساعة واخيراً . وقال
بكري : « رحمة الله عليها . كانت امرأة فاضلة » . وتنهى
ود الرئيس وقال : « يا خسارة . الدنيا هكذا . تعطي الذي
لا يريد ان يأخذ . علي اليمين لو كنت في محلك كنت عملت
عمال . كنت تزوجت وقعدت هناك ودقت حلاوة الحياة مع
بنات الريف . ماذا أرجعك لهذا البدد الحلاء امقطوع ؟ » .

وقال بكري : « الفزال قالت بلدي شام » .

وكانت بنت مجذوب قد أوقدت سيجارة اخرى جذبت منها الدخان بسخاء وعكرت به سماء الغرفة ، فقالت لودريس : « انت لم تعدم حلاوة الحياة حتى في هذا البلد الحلام المقطوع . ما أنت سمين بدين لا تعجز ولا تكبر مع انك زدت على السبعين » .

فقال ودريس : « علي اليمين ، سبعين سنة فقط لا تزيد يوماً واحداً . اما انت شرط اكبر من حاج احمد » .

فقال له جدي : « خاف الله يا ودريس . بنت مجذوب لم تكن ولدت حين تزوجت أنا . وهي اصغر منك بستين أو ثلاث » .

فقل ودريس : « على اي حال ، انا في يومنا هذا انشط واحد فيكم . وعلي اليمين ، بين فخدي المرأة انا انشط من حفيدك هذا » .

فقالت بنت مجذوب : « انت تفلح في الكلام . ولا بد انك تجري وراء النساء لان بصاعتك مثل عقلة الاصبع » . فقال ودريس : « لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئاً مثل مدافع الاسكيز » . فقالت بنت مجذوب : « المدافع سكنت وقت مات ود البشير . انت يا ودريس رجل مخرف ، عقلك كله في رأس ذكرك ، ورأس ذكرك صغير مثل عقلك » .

وارتفع ضحكهم جميعاً ، حق بكري الذي كان من قبل
يضحك يهدوء . وتوقف جدي عن الطقطقة بمسبخته تماماً ،
وضحك ضحكته النحيبة الحبيثة المنطلقة . وضحكت بنت
مجنذوب بصوتها الرجالي المبحوح . وضحك ود الريس ضحكاً
اقرب الى الشخير منه الى الضحك . ومسحوا الدموع من
اعينهم ، - وقال جدي : « أستغفر الله العظيم وأتوب اليه » .
وقالت بنت مجنذوب : « استغفر الله . والله ضحكوتوا يا جماعة
الهم اجمعنا ثانية في ساعة خير » .

وقال بكري : « استغفر الله . اللهم اغفر لنا وارزقنا
حسن الختام » .

وقال ود الريس : « استغفر الله العظيم . ايام نقضيها على
وجه الارض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء » .

وهبت بنت مجنذوب واقفة دفعة واحدة ، كما يهب رجل
في الثلاثين ، وانتصبت بطولها ، معتدلة القامة ، لا نخناء في
الظهر ولا تقوس في الكتفين . وقام بكري متعاملاً على نفسه
وقام ود الريس يتكى قليلاً على عصاه . وقام جدي من على
فروة الصلاة وجلس على سريره ذي الأرجل القصيرة ، ونظرت
اليهم ، ثلاثة شيوخ وامرأة شيوخة ، ضحكوا برهة على حافة
القبر . وفي غد يرحلون . غداً يصبر اخفيد أباً والأب جد ،
وتستمر القافلة .

ثم خرجوا . وقال لي ود الريس وهو يذهب : « باكر
يا افندي تنفدى معنا » .

وتمدد جدي على سريره ، ثم ضحك ، وحده هذه المرة ،
كأنما يؤكد احساسه بالعزلة ، بعد أن ذهب الناس الذين
يضحكونه ويضحكهم . وبعد فترة قال : « هل تدري لماذا
دعاك ود الرئيس للغداء ؟ » فقلت له اننا اصدقاء وقد دعاني
من قبل . فقال جدي : « انه يريد منك خدمة » .
فقلت : « ماذا ينبغي ؟ » .

قال : « ينبغي الزواج » .

فتضاحكت وقلت لجدي : « ما شأني بزواج ود الرئيس ؟ »
فقال جدي : « انت وكيل العروس » .

لذت بالصمت . فقال جدي وهو يظن انني لم افهم :
« ود الرئيس يريد ان يتزوج أرملة مصطفى سعيد » .

مرة اخرى لذت بالصمت ، فقال جدي : « ود الرئيس لا
يزال شاباً ، وهو صاحب مال . وعلى اي حال المرأة يلزم لها
الستر . ثلاثة اعوام مرت على وفاة زوجها . الا تريد الزواج
أبداً ؟ » .

قلت له انني لست مسؤولاً عنها . ابوها موجود واخوتها ،
فلماذا لا يطلبها ود الرئيس منهم ؟ فقال جدي : « البلد كلها
تعرف ان مصطفى سعيد جعلك وصياً على زوجته وولديه » .
قلت له انني وصي على الولدين ولكن المرأة حرة التصرف
وأولياؤهم موجودون . فقال جدي : « انها تثق بكلامك .
لو حدثتها فقد ترضى » .

احسست بنفيظ حقيقي ادهشي ، اذ ان هذه الاشياء
مألوفة في البلد . وقلت لجدي : « انها رفضت رجالاً اصفر
منه سناً ، انه يكبرها بأربعين عاماً » . ولكن جدي اصر
على ان ود الرئيس شاب وانه ميسور الحال وانه متأكد أن
أبائها لن يمانع ولكن المرأة نفسها قد ترفض ولذلك ارادوا ان
يجعلوني واسطة خير .

حبس الغضب لساني فلذت بالصمت . وقفزت الى ذهني
صورتان فاضحتان في آن واحد . ولشدة عجيبي ، اتحدث
الصورتان في ذهني ، وتخيّلت حسنة بنت محمود ، أرملة مصطفى
سعيد ، هي المرأة نفسها في الحالتين - فخذان بيضاوان
مفتوحتان في لندن ، وامرأة تثن تحت ود الرئيس الكهل ،
قبيل طلوع الفجر في قرية مغبورة الذكر عند منحني النيل .
ان كان ذلك شراً فهذا ايضاً شر ، وان كان هذا ، مثل
الموت والولادة وفيضان النيل . وحصاد القمح ، جزءاً من
نظام الكرون ، فقد كان ذلك أيضاً كذلك . وأتصور حسنة
بنت محمود ، أرملة مصطفى سعيد ، في الثلاثين من العمر ،
تبكي تحت ود الرئيس ، الذي بلغ السبعين ، ويتحول بكاؤها الى
قصص من قصص ود الرئيس المشهورة عن نسائه الكثيرات ، يتندد
بها رجال البلد ، فيزداد الغيظ في صدري ضراوة . ولم استطع
البقاء فخرجت ، وسمعت جدي ينادي ورائي فلم التفت .
وفي بيتنا سأني أبي عن سبب غضي فحكيت له القصة .
ضحك وقال : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ » .

قريباً من الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت إلى بيت مصطفى سعيد ، ودخلت من باب الحوش الكبير ، ونظرت برهة إلى اليسار إلى الغرفة المستطيلة من الطوب الأحمر . ساكنة ، لا كالمقبرة ، ولكن كسفينة ألقت مراسيها في عرض البحر . إنما الوقت لم يحن بعد . وأجلستني على كرسي في المصطبة أمام الديوان ، المكان عينه ، وجاءت لي بكوب من عصير الليمون . وجاء الولدان وسلموا علي ، الأكبر محمود اسم أبيها ، والأصغر سعيد اسم أبيه . طفلان عاديان ، أحدهما في الثامنة والثانيها في السابعة ، يركبان حملاً كل صباح إلى المدرسة على بعد ستة أميال . إنها أمانة في عنقي ، ومن لأسباب التي تحضرني هنا كل عام أن أتفقد أحوالهما . سنختنها هذه المرة ، وسنحضر لغنين والمداحين ونقيم احتفالاً يكون ذكرى مضيئة من ذكريات طفولتها . قال : « جنبها مشقة السفر » . انني لن أفعل شيئاً من هذا الثقيل ، إذا أراد ، حين يكبران ، أن يسافرا فليسافرا . كل أحد يبدأ

من أول الطريق ، والعالم في طفولة لا تنتهي .

انصرف ولدان وظلت هي واقفة أمامي . قامة بمشوقة تقرب من الطول ، ليست بدينة ولكنها ريانة ممتلئة كعود قصب السكر ، لا تضع حناء في قدميها ولا في يديها ، ولكن عطرأ خفيفاً يفوح منها . شفتاها لمساوان طبيعة ، وأسنانها قوية بيضاء منتظمة . وجهها وسم ، والعينان السوداوان الواسعتان يختلط فيها الحزن والحياء . حين سلمت عليها أحسست بيدها ناعمة دافئة في يدي . امرأة نبيلة الوقفة ، أجنبية الحسن ، أم انني أتخيل شيئاً ليس موجوداً حقيقة ؟ امرأة أحس حين ألقاها بالخرج والخطر ، فأهرب منها أسرع ما أستطيع . هذا هو القربان الذي يريد ود الرئيس أن يذبجه على حافة القبر ، ويرشي به الموت فيهمله عاماً أو عامين .

وظلت واقفة رغم الحاحي ، ولم تجلس إلا حين قلت لها : « إذا لم تجلسي فإذهب » . بدأت الحديث بطيئاً متعصراً ، ومضى كذلك والشمس تتحدر نحو المغيب ، والهواء يبرد قليلاً قليلاً ، وقليلًا قليلاً أيضاً أخذت عقدة لساني تنحل وعقدة لساني . وقلت لها شيئاً أضحكها وارتجف قلبي من عذوبة ضحكها . وانتشر دم المغيب فجأة في الأفق الغربي كدماء ملايين ماتوا في حرب عارمة نشبت بين الأرض والسماء . وانتهت الحرب فجأة بالهزيمة ، ونزل ظلام كامل مستتب احتل الكون بأقطابه الأربعة ، وأضاع مني الحزن

والحياء الذي في عينيها . لم يبق إلا الصوت الذي دفأته الالفة
والعطر الخفيف كينبوع قد يحف في أي لحظة . وفجأة قلت
لها : « هل أحببت مصطفى سعيد ؟ »

لم تجب . وظللت برهة أنتظر ولكنها لم تجب . ثم
أدركت أن الظلام والعطر كادا يخرجاني عن طوري وان
ذلك سؤال لا يسأل في ذلك الزمان وذلك المكان . ولكن
الظلام ما ليث أن ثفر ثغرة نفذ منها صوتها إلى أدنى :
« كان أباً لأولادي » .

إذا صدق ظني ، فإن الصوت لم يكن حزيناً ، بل كانت
فيه مناغاة . وتركت الصمت يوسوس لها فلمعها تقول شيئاً .
نعم ، ذلك هو :

« كان زوجاً كريماً وأباً كريماً . طول حياته لم يقصر
ممنياً » .

فقلت لها وأنا أميل في الظلام تجاهها : « هل كنت تعرفين
من أين هو ؟ »

قالت : « من الخرطوم » .

قلت : « وماذا يعمل في الخرطوم ؟ »

قالت : « في التجارة » .

قلت : « ولماذا جاء إلى هنا ؟ »

قالت : « الله أعلم » .

وكدت أياأس ثم هتت رسة شصة بي التجهي حمامة

شحنة من العطر ، قوتي ما كنت أطمع فيه . واستنشقت
العطر وأحسست بيامي يزداد حدة . وفجأة حدثت فجوة
كبيرة في الظلام ، نفذ منها صوت حزين هذه المرة ، حزناً
أعمق من غور النهر . قلت : « أظنه كان يخفي شيئاً »
لاحقتها بالسؤال : « لماذا ؟ »

قالت : « كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة »
وارددت ملاحظة . « ماذا في تلك الغرفة ؟ »

قالت : « لا أدري . بي لم أدخلها قط . المفتاح عندك .
لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ »

نعم ، هبنا فمنا أنا وهي الآن ، في هذه اللحظة ، وأرقدنا
المصاح ، ودخلنا ، هل بجده معلقاً من رقبته في السقف ،
أم بجده جالساً القرفصاء على الأرض ؟

سألها مرة أخرى . « لماذا تظنين أنه كان يخفي شيئاً ؟ »
صوتها الآن ليس حزناً وليس فيه مناغاة ، ولكنه
مشرشر الأطراف كورقة الذرة :

« أحياناً بالليل في النوم كان يقول كلاماً .. بالرطانة ،
ولاحقتها بالسؤال : « أي رطانة ؟ »

فقلت : « لا أدري . مثل الكلام الإفرنجي »

وظلت ماثلاً وجهتها في الظلام ، متوقفاً ، منتظراً .

« كان يردد في نومه كلمات .. مثل جينا ، جيني ..

لا أدري ، »

في هذا المكان نفسه ، في وقت مثل هذا ، في ظلام مثل
 هذا ، كان صوته يطفو كأحوات ممتدة طافية على سطح
 البحر . « ظلت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يشتد توتر
 وتر القوس . قوافلي ظمأى والسراب يتوهج قدامي في صحراء
 اشوق . في تلك الليلة حين همست جين في أذني : « تعال
 معي . تعال معي » ، كانت حياتي قد اكتملت ولم يكن
 يوجد سبب للبقاء . . « وتناهت إلى أذني صرخة طفل من
 مكان ما في الحي ، وقالت حسنه : « كأنه كان يحس بدنو
 أحله . قبل اليوم ، يوم . . قبل موته بأسبوع رتب كل
 شؤونه . كانت له أطراف جميعها ، وديون دفعها . قبل موته
 بيوم دعاني وحدثني بما عنده . أوصاني كثيراً على الولدين .
 أعطاني الرسالة المحتومة بالشمع . قال لي . أعطها له إذا حدث
 شيء . وقال لي إذا حدث شيء فأنت تكون وصياً على
 لأرلاد . قال لي : استشيريه في كل ما تفعلين . بكيت وقلت
 له : إن شاء الله ما في عوج . فقال : فقط من باب الاحتياط
 والدنيا غير معروفة . في ذلك اليوم توسلت إليه ألا ينزل إلى
 الحقل والدنيا فيضان وغرق . كنت خائفة . لكنه قال لا
 داعي للخوف وإنه يجيد السباحة . كنت متوجة طول اليوم
 وزاد خوفي حين تأخر عن ميعاده . وانتظرنا ، ثم كانت
 ما كان ،

وأحسست بها تبكي في صمت ، ثم ارتفع بكاؤها ، وتحول
 إلى شقيق حاد ، ارتعش له الظلام القائم بيني وبينها . ضاع

العطر والصمت، ولم يعد في الكون إلا نحيب امرأة شكلت روحاً
 لا تعرفه ، رجلاً أفرد أسرته وضرب في عرض البحر وراء
 سراب أجنبي . وود لرئيس الشيخ في داره يحلم بليالي العنجب
 تحت فركة القمر مصيص . وأنا ماذا أفعل لآل وسط هذه
 الفوضى ؟ هل أقوم إليها وأضها إلى صدري وأجفف دموعها
 بنديبي وأعيد الطمأنينة إلى قلبها بكلماتي ؟ وقمت نصف قومة
 مستنداً إلى ذراعي ، ولكنني أحسست بالخطر ، وتذكرت
 شيئاً ، فلبثت راقفاً هكذا زمناً في حالة بين الاقدام
 والاحجام . وبغمة هبط علي عناء تقيل تهالكت تحت وطأته
 على المقعد . الظلام كثيف وعميق وأساسي وليست حالة
 يعدم فيها الضوء - الظلام الآن ثابت كأن الضوء لم يوجد
 أصلاً ، ونجوم السماء مجرد فتوق في ثوب قديم مهمل . العطر
 أضفأت أحلام ، صوت لا يسمع مثل أصوات أرجل النمل في
 قل لرمل . ونبع من جوف الظلام صوت لم يكن صوتها ،
 صوت ليس غاضباً ولا حزيناً ولا حائفاً ، صوت مجرد ،
 يقول : « كان المحامون يتصارعون عني جثتي . لم أكن أنا
 المهم بل كانت القضية هي المهمة ، بروفيسور ماكول فستركين
 من المؤسسين لحركة التسليح الحلقي في أكسفورد ، وماسوني ،
 وعضو في اللجنة العليا لأوتر الجماعات التبشيرية البرونستينية
 في أفريقيا . لم يكن يخفي كراهيته لي . أيام تلميذي عليه في
 أكسفورد كان يقول لي في تبرم واضح : « أنت يا مستر سعيد
 خير مثال على أن مهمتنا الحصارية في أفريقيا عديمة الجدوى ،

«أنت بعد كل الجهود التي بذلناها في تثقيفك كأيك تخرج
 من العابة لأول مرة» . ومع ذلك فما هو ذا يستعمل كل
 مهارته ليخلصني من حبس المشقة . وسير آرثر هفنز ، تروج
 وطلق مرتين ، مغامراته ، عرامية معروفة ، مشهور بصلاته
 مع اليسار والأوساط البوهيمية . قضت عند الميلاد سنة ١٩٢٥
 في بيته في ساغورو ولدن . كان يقول بـ : «أنت وعد
 ولكنني لا أكره الأوغاد» ، فأنا أيضاً وغداً . لكنه في هذه
 المحكمة سيدعمل كل مهارته ليضع حبس المشقة حول عنقي .
 والحلفون أيضاً ، أشتات من النمس ، منهم العامس والصيب
 والمرارع والمعم والتاجر والحنوتي ، لا تجمع صفة بيني وبينهم ،
 لو ابني طلبت استئجار غرفة في بيت أحدهم فأغلب الظن أنه
 سيرفض ، وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له انني سأتزوج هذا
 لرجل الافريمي ، فيحس حتماً بأن العالم ينهار تحت رجله .
 ولكن كل واحد منهم في هذه المحكمة سيمرر على نفسه لأول
 مرة في حياته . وأنا أحس تجاههم بنوع من التفوق ، فالاحتفال
 مقام أصلاً بسببي ، وأنا فوق كل شيء مسموع ، انني الدخيل
 لدي يجب أن يبت في أمره . حين جرى لكلستر بمحمود ود
 أحمد وهو يرصف في الاغلال بعد أن هزمه في موقعة اندرا ،
 قال له : «لماذا جئت بندي تخرب وتهدب ؟» الدخيل هو
 لدي قال ذلك لصاحب الأرض ، وصاحب الأرض طأطأ
 رأسه ولم يقل شيئاً . فليكن أيضاً ذلك شأني معهم . انني
 أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ،

وقعقة سنبك خيل النبي وهي تطاء أرض القدس . البواخر
مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك
الحديد انشئت أصلاً لنقل الجنود . وقد أنشأوا المدارس
ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . انهم جلبوا إلينا جرثومة
العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثله من قبل في
السوم وفي فردان ، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر
من ألف عام . نعم يا سادتي ، انني جئتكم غازياً في عقر
داركم . قطرة من السم الذي حقنتم به سرايين التاريخ . أنا
لست عطيل . عطيل كان أكذوبة »

بينما كنت أفكر في قول مصطفى سعيد وهو يجلس في
هذا المكان عينه ، في ليلة مثل هذه ، كنت أسمع نشيجها
بالبكاء كأنه يصلي من بعد ، يختلط في خيالي بأصوات مبعثرة
لا بد انني سمعتها في أوقات متباعدة ، ولكنها تداخلت في ذهني
كأجراس كنيسة - صرخ طفل في مكان ما في الحي ،
وصياح ديك ، ونهيق حمار ، وأصوات عرس تأتي من الضفة
الأخرى للنهر . لكنني لأن أسمع صوتاً واحداً فقط ، صوت
بكائها الممض . ولم أفعل شيئاً . جلست حيث أنا بلا حراك
وتركتها تبكي وحدها لليل حق سكنت . وكان لا بد أن
أقول شيئاً ، فقلت : « التعلق بالماضي لا ينفع أحداً . عندك
الولدان ، وأنت مازلت شاة في مقتل العمر . فكري في
المستقبل . ومن يدري ، لعلك تقبلين واحداً من الخطاب
العديدين الذين يطلبونك ،

أجابته فوراً ، بحـزم ، الأمر الذي أدهشني : « بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل » .

ولم أكن أنوي أن أقول لها ذلك ، ولكنني قلت : « ود الرئيس يريد زواجك ، وأبوك وأهلك لا يمانعون . كلّفني أن أتوسط له عندك » .

وصمتت فترة طويلة حتى ظننت أنها لن تقول شيئاً ، وفكرت أن أقوم وأذهب . وأخيراً أحسست بصوتها في الظلام كأنه نصل : « إذ أجبروني على الزواج ، فاني سأقتله وأقتل نفسي » .

وفكرت في عدة أشياء أقولها ، ولكنني ما لبثت ان سمعت المؤذن ينادي : « الله أكبر . الله أكبر » لصلاة العشاء ، فوقفت هي أيضاً ، وخرجت دون أن أقول شيئاً .

وأنا أشرب قهوة الصباح جاءني ود الرئيس . كنت أنوي الذهاب إلى داره ولكنه لم يمهـلني . قال انه جاء ليذكـرني بدعوة البارحة ، ولكنني كنت أعلم أنه لم يستطع الصبر فجاء ليعرف مني نتيجة وساطتي . قلت له حالما جلس : « لا فائدة . أها لا تريد الزواج اطلاقاً . لو كنت منك لتركـت هذا الموضوع البئـة » .

لم أكن أحسب أن الخبر سيقع عليه كما وقع فعلاً . لكن ود الرئيس الذي يبدل النساء كما يبدل الخمر ، يجلس أمامي

لأن . وجهه مزبد وجفناه يرتعشان ، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها . أخذ يتململ في مقعده وينقر الأرض في عصبية دالفة بعداء . خلع حذاءه من رجله اليمنى ولكنه عدة مرات ، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس ، ويفتح فيه كآبه يريد أن يشكم ثم يسكت . يا للعجب هل معقول أن ود الرئيس عاشق ؟ وقلت له : « لن تعدم امرأة غيرها تتزوجها »

قل وعيناه لذكيتان لم تعودا ذكيتين ، أصبحتا كرتين من لزجاج قد استقردا على حاة واحدة حامدة : « لن أتزوج غيرها . ستقلمي وأنفها صاغر . هل تظن انها ملكة أو أميرة ؟ الأرامل في هذا البلد أكثر من جوع المطن . تحمد الله انها وجدت زوجاً مثلي » .

قلت له . « إن كانت امرأة كسائر النساء فلماذا الإصرار ؟ أنت تعلم انها رفضت رجالاً غيرك ، بعضهم أصغر منك سناً . إذا أردت أن تتفرغ لتربية ولديها فلماذا لا تتركونها وشأنهن ؟ » بغتة تدفق من ود الرئيس غضب حدي في م أكن أظن أنه من طبيعته . ثار ثورة عارمة ، وقال شيئاً أدهشني حقيقة : « سأل نفسك لماذا ترفض بنت عمود الزواج . انت السب . لاشك أن يديك وبينها شيئاً . ما دخلك أنت ؟ أنت لست أباهما ولا أخاهما ولا ولي أمرها . انها ستزوجني رغم انك ونفها . أبوها قبل واخواتها قبوا . الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في

المدارس لا يسير عندنا . هذا البلد فيه الرجال قوامون
على النساء .

ولا أعلم ماذا كان يحدث لولا أن أبي دخن في تلك اللحظة ،
وقفت فوراً وخرجت .

ورحت إلى محجوب في حلاله . كان محجوب في مثل سي ،
قصينا طفولتنا معا ، وكنا يجلس على درجين متلاصقين في
المدرسة لأولى . وكان أدكى مني . ولما انتهينا من مرحلة
التعليم الأولى . قال محجوب : هذا القدر من التعليم يكفي ،
القراءة والكتابة والحساب . نحن ناس مررعون مثل آتائنا
وأجدادنا . كل ما يدمر المزارع من تعليم ، لا يمكنه من
كتابة خطبات وقراءة الحرائد ومعرفة فروع الصلاة . وإذا
كانت لنا مشكله نعرف نتفهم مع الحكام . مضيت أنا في
ذلك السبيل ، وتحول محجوب إلى حقة فعلة في البلد ، فهو
ليوم رئيس للجنة مشروع الزراعي ، والجمعية التعاونية ،
وهو عضو في لجنة مستشفى التي كادت تتم ، وهو على رأس
كل ما يقوم إلى مركز المديرية لرفع الصلوات . رحبت حواء
لإمتقلال أصبح محجوب من رعماء الحزب الوصي الاشتراكي
الديمقراطي في البلد . كما أحيانا يتذاكر أيام طفولتنا في
القرية فيقول لي . لكن انظر أين أنت الآن وأين أنا . أنت
صرت موظفا كبيرا في الحكومة وأنا مزارع في هذه البادية
ل مقطوعة . وأقول له بأعجاب حقيقي : أنت الذي نحت

لا أنا ، لأنك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر . أما نحن
فموظفون لا نقدم ولا نؤخر . الناس أمثالك هم الورثة
الشرعيون للسلطة . أنتم عصب الحياة . أنتم ملح الأرض .
وبضحك محجوب ويقول : « إذا كنا نحن ملح الأرض فهي
أرض ماسخة » .

ضحك أيضاً بعد أن سمع قصتي مع ود الرئيس وقال :
ود الرئيس رجل مخرف لا يعني مايقول » .

قلت له : « انت تعلم أن علاقتي بها علاقة يملها الواجب
لا أكل ولا أقل ؟ »

فقال محجوب : « لا تلتفت لتخريف ود الرئيس . سمعتك
في البلد لا تشوبها شائبة . أهل البلد كلهم يلهجون بحمدك
لأنك تقوم بالواجب نحو أولاد مصطفى سعيد ، رحمه الله ،
خير قيام . لقد كان على أي حال رجلاً غريباً لا تربطك به
رابطة » . وسكت قليلاً ثم قال : « إنما إذا كان أبو المرأة
واخوانها راضين فلا حيلة لأحد » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج .. » وقاطعني
قائلاً : « نت تعرف نظام الحياة هنا . المرأة للرجل ، والرجل
رجل حتى لو بلغ أرذل العمر » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج .. » وقاطعني
قائلاً : « في هذا العصر »

وقال محبوب : « الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه .
تغيرت أشياء . طلعت الماء بدل السواقي ، محاريث من حديد
بدل محاريث الخشب . أصبحنا نرسل بناتنا لمدارس .
راديوها . أوتومبيلات . تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل
العرق والمريسة . لكن كل شيء كما كان » . وضحك محبوب
وهو يقول : « الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثلي وزراء في
الحكومة » . وأضاف وهو ما يرال يضحك : « وهذا طبعاً
من رابع المستحيالات » .

قلت لمحبوب ، وقد سرى عني : « هل تظن أن ود
الريس وقع في غرام حسنه بنت محمود ؟ »

قال محبوب : « لا يستبعد . ود الرس رجل صاب .
وهو منذ سنتين يلهج بذكرها . وقد طلبها من قبل وأبوها
قل ولكنها رفضت . وانتظروا لعلها تقبل مع مرور الزمن »
قلت لمحبوب : « لكن لماذا هذا الغرام الفجائي ؟ ود
الريس يعرف حسنه بنت محمود منذ كانت طفلة . هل تذكرها
وهي طفلة شرمسة تتسلق الشجر وتصارع الأولاد؟ كانت وهي
فتاة تسبح معنا غارية في النهر . ماذا جد الآن ؟ »

وقال محبوب : « ود الريس كهؤلاء الناس المغرمين باقتناء
الحير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة إلا إذا رأى رجلاً آخر
راكباً عليها . يراها حينئذ جميلة ويسعى بجاهداً لشراؤها حتى

ولو دفع فيها أكثر مما قد تحقق ، وصحت مدة يفكر ثم قال : « ولكن الحقيقة ان بنت محمود قد تغيرت بعد رواجها من مصطفى سعيد . كل المسوان يتغيرون بعد الزواج لكنهم هي خصوصاً تغيرت تغيراً لا يوصف . كأنها شخص آخر حق نحن أندها الذين كنا نلعب معها في الحي ، سطر لها اليوم فترادفاً شيئاً جديداً هل تعرف ؟ كفساء المدن »

وسألت محبوب عن مصطفى سعيد فقال . « رحمه الله . كان يحترمني وكدت أحترمه . « تكن الصلة بيننا وثيقة أول الأمر . ولكن عملنا معاً في لجنة المشروع قرب بيننا . موته كان خسارة لا تعوض . هل تعلم ، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع . كان يتولى الحسابات . خبرته في التجارة أودتنا كثيراً . وهو الذي أشار علينا باستغلال أرباح المشروع في إقامة طاحونة للدقيق لقد وفرت علينا أتعاباً كثيرة ، وأصبح أساس ليوم يحينونها من أطراف البلد . وهو الذي أشار علينا أيضاً بفتح دكان تعوي . الأسعار الآن غدا لا تريد عن الأسعار في الخرطوم . زمان ، كما تعلم ، كانت المصانع قسائي مرة أو مرتين في الشهر بالبحرة . كان لتجار يخزونها حتى تنقطع كلبسة من السوق ، ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة . المشروع يملك ايوم عشرة لواري تجلب لما المصانع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأم درمان . وزجهوته أكثر من مرة أن يتولى رئاسته ولكنه كان يرفض

ويقول انني أجدر منه . العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأن فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم بعد موته قامت إشاعات بأنهم دبّروا قتله . مجرد كلام . لقد مات غرقاً . عشرات الرجال ماتوا غرقاً ذلك العام . كان عقلية واسعة . ذلك هو الرجل الذي كان يستحق أن يكون وزيراً في الحكومة لو كان يوجد عدل في الدنيا .

فقلت لمحبوب : « السياسة أفسدتك . أصبحت لا تفكر إلا في السلطة . دعك من الورارات والحكومة وحدثني عنه كاسان . أي نوع من الناس كان هو ؟ »

وظهرت الدهشة على وجهه وقال : « ماذا تقصد أي نوع من الناس ؟ إنه كان كما ذكرت لك » .

ولم أستطع أن أجد الكلمات المناسبة لأوضح لمحبوب قصدي . وقال هو : « مهيا بكر ... ايش السبب في اهتمامك بمصطفى سعيد ؟ لقد سألتني عنه كذا مرة من قبل ؟ »

واستطرد محبب قبي أن أرد على كلامه : « تعرف ؟ لا أفهم لماذا جعلك وصياً على ولديه . طبعاً أنت تستحق شرف الأمانة وقد قسب بها خير قيام . لكنك كنت أقلنا معرفة به نحن معه هنا في البلد ، وأنت كنت تراه من العام إلى العام . كنت أتوقع أن يجماني أو يجعل جدك وصياً . جدك كان صديقه الحميم . كان يحب الاستماع إلى حديثه . كان يقول

لي : تعرف يا محبوب ؟ حاج أحمد رجل فريد من نوعه .
وكنت أقول له : حاج أحمد رجل مخرف . فيزععل جد
ويقول : « لا ، لا تقل هذا ، حاج أحمد جزء من التاريخ » .

قلت لمحبوب : « أنا على أي حال وصي إسمياً . الوصي
الحقيقي هو أنت . ولدان هنا معك . وأنا بعيد في الخرطوم »
فقال محبوب : « انها ولدان ذكيان مؤدبان . فيهما
مخايل أبيهما . سيرهما في الدراسة أحسن ما يكون »

فقلت له : « ماذا يحدث لهما إذا تم موضوع الزواج
المضحك الذي يريده ود الرئيس ؟ »

فقال محبوب : « هون عليك . حتما ود الرئيس سينشغل
بامرأة أخرى . وعلى أسوأ الفروض تتزوجه . لا أظنه يمش
أكثر من عام أو عامين . ويكون لهما سهم في ارضه وزرعه
الكثير »

ثم ، مثل ضربة مفاجئة تنزل على أم الرأس ، نزل علي
قول محبوب : « لماذا لا تتزوجها انت ؟ » خفق قلبي بيز
جنبي خفقانا كاد يفلت زمامه من يدي . ولم أجد الكلمات إلا
بعد مدة . قلت لمحبوب وصوتي يرتجف : « لا شك انك
تمزح »

فقال : « جد . لماذا لا تتزوجها ؟ أنا متأكد انها

مستقبل . انت وصي على الولدين ، وبالأحرى أن تتم الموضوع
وتصبح أبا ،

وأحسست بعطرها ليلة أمس ، وتذكرت الأفكار التي
نبئت في رأسي بشأنها في الظلام . وسمعت محبوب يضحك
ويقول « لا تقل لي انك روج وأب . الرجال يتزوجون على
زوجاتهم كل يوم . لن نكون أولهم ولا آخرهم ،

وقلت لمحبوب ، وقد استعدت سيطرتي على نفسي ، وأنا
أضحك ايضاً : « انت مجنون حقاً »

وتركته وذهبت ، وان كنت قد ايقنت من حقيقة متأكد
كثيراً من راحة بالي فيما بعد . انني ، بشكل أو بآخر ، أحب
حسنة بذت محمود ، ارملة مصطفى سعيد . أنا ، مثله ومثل
ود الرئيس وملايين آخرين ، لست معصوماً من جرثومة
العدوى التي تنتزى بها جسم الكون .

احتفلنا بختان الولدين وعدت للخرطوم . تركت روجني
وابنتي في البلد ، وسافرت في الطريق الصحراوي في سيارة
من سيارات اشروع التي ذكرها محجوب . كنت أسافر
عادة بالساخرة إلى ميناء كريمة النهرى ، ومن هناك أخذ
القطار ماراً بأبي حمد وأتت إلى الخرطوم . لكنني هذه المرة
كنت في عجة من أمري دون مسبب واضح ، ففضلت اختصار
الطريق . وقامت السيارة في أول الصباح ، وسارت
شرقاً حذاء النيل نحو ساعتين ، ثم انجبت جنوباً في راوية
مستقيمة وضربت في الصحراء . لا يوجد ماوى من الشمس
التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض
كأن بينها وبين أهل الأرض تاراً قديماً . لا ماوى سوى
الطل الساخن في جوف البيرة ، وهو ليس ظلاً . صريق
ممل يصعد ويهبط ، لا شيء يغري العين . شجيرات مبعثرة في
الصحراء ، كلها أشواك ، ليست لها أوراق ، أشجار نائفة
ليست حية ولا ميتة . تسير البيرة ساعات دون أن يعترض

طريقها اسان أو حيوان . ثم عمر بقطيع من الجمال هي
لأخرى عجفاء ضامرة . لا توجد سحابة واحدة تبشر بالأمل
في هذه السماء الحارة ، كأنها عطاء الحميم . اليوم هنا شيء
لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل .
الليل هو الخلاص . وفي حالة تقرب من الحمى طافت برأسي
تف من أفكار ، كلمات من جمل ، وصور لوجوه واصوات
تجيه كلها يابسة كأعاصير الصنيرة التي تهب في الحقول البور .
فيم العجالة ؟ سألتني : « فيم العجالة ؟ » قالت : « ولماذا
تمكث اسبوعاً آخر ؟ » قالت .. الحارة السوداء ، اعراي
عش عمك وبعه سمارة السوداء . وقال أبي : « هل هذا
شيء يشبه الغضب ؟ » عقل الإنسان ليس محفوظاً في ثلاثة .
أها هذه الشمس التي لا تطاق . نذوب انخ تشل التفكير .
ومصطفى سعيد ، وجهه ينبع واضحاً في خيالي كما رأيت أول
يوم ، ثم يضيع في أزيز محركات السيارة ، وصوت احتكاك
بخصى الصحراء ، واحاول حاهداً استعادته فلا استطيع .
يوم الاحتفال بختان الولدين ، خلعت حبه الثوب عن رأسها
ورقصت كما تفعل الأم يوم ختان ولدها . ما لها من امرأة .
لماذا لا نتزوجها انت ؟ كيف كانت ايزابيلا ميمور تناجيه ؟
« اغتلفني ايها العول الأفريقي . احرقني في نار معبدك أيها الإله
الاسود . دعني أتأذى في طقوس صلواتك العربية المهيجة ،
وها هنا منبع النار . ها هو المعبد . لا شيء . الشمس
والصحراء ونباتات يابسة وحيوانات عجفاء . ومهتز كباب

السيارة حين تنحدر في واد صغير . وتمر بعظم حمل نفق من
 العطش في هذا التيه . ويعود إلى خيالي وجه مصطفى سعيد
 في وجه ابنه الأكبر . انه اكثر الولدين شهماً به . يوم حفلة
 الختان انا ومحجوب شربنا اكثر مما يجب . الناس في بلدنا
 لرئاسة الحياة عندهم يجعلون من أي حدث سعيد مهما صغر عذراً
 لاقامة حفل كحفل العرس . حررته من يده في الليل ،
 والمغنون يغنون والرجال بصفقون في قلب الدار . وقفنا
 أمام باب الغرفة تلك . قلت له : « أنا وحدي عندي
 المفتاح . باب من الحديد » . قل لي محجوب بصوته الخمر :
 « هل تدري ما بداخلها ؟ » قل له . « نعم » قال :
 « ماذا ؟ » فقلت وأنا اصحك تحت وطأة الخمر :
 « لا شيء . لا شيء إطلاقاً » . هذه الغرفة عبارة عن
 نكتة كبيرة . كالحياة . تحب فيها سرّاً ولبس فيها
 شيء . « لا شيء إطلاقاً » . رقل محجوب : « أنت
 سكران » هذه الغرفة مليئة من أرضها إلى سقفها بالكنوز .
 ذهب ، وجواهر ، ودرر وآلاتي . هل تعلم من هو مصطفى
 سعيد ؟ « قلت له ان مصطفى سعيد كان أكذوبة » وضحكت
 مرة أخرى ضحكة مخمورة وقلت له : « هل تريد أن تعرف
 حقيقة مصطفى سعيد ؟ » فقال محجوب : « أنت لست
 سكران بل مجنوناً أيضاً . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي
 الله الخضر . يظهر فجأة ويغيب فجأة . ولكنوز التي في هذه
 الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان إلى هنا . وأنت

عندك مفتاح الكنز . « افتح يا سمسم ودعنا نفرق الذهب
والخواهر على الناس » . وكاد محجوب يصرخ ويجمع للناس
لولا انني أغلقت فمه بيدي . وفي الصباح استيقظ كل واحد
منا في بيته لا ندري كيف وصلنا . والطريق لا ينتهي عند
حد ، والشمس لا تكمل . لا غرو أن مصطفى سعيد هرب
إلى زمهرير الشمال . ايزابيلا سيمور قالت له : « المسيحيون
يقولون أن الهم صلب ليحمل وزر خطايهم . انه إذن مات
عشنا . فما بسمونه الخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمناقضتك
يا إله وثنيي . أنت إلهي ، ولا إله غيرك » . لا بد أن هذا
هو سبب انتحارها ، وليس مرضها بالسرطان . كانت مؤمنة
حين قابلته . كفرت بدينها وعبدت إلها كمجمل بني إسرائيل .
يا للغربة . يا للسخرية . الانسان لمجرد انه خلق عند خط
الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبداً وبعضهم يعتبرونه
إلهاً . أين الاعتدال ؟ أين الاستواء ؟ وجددي بصوته السجيل
وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته ، أين وضعه في هذا
الوسط الأحمدي ؟ هل هو حقيقة كما أرغم أنا وكما يبدو هو ؟
هل هو فوق هذه الفوضى ؟ لا أدري . ولكنه بقي على أي
حال ، رغم الأوبئة وفساد الحكم وقسوة الطبيعة . وأنا موقن
أن الموت حين يبرز له سيبتسم هو في وجه الموت . ألا يكفي
هذا ؟ هل بن آدم مطالب بأكثر من هذا ؟ وبرز لنا من وراء
التل اعرابي جاء يهرول نحونا ، وقطع الطريق على السيارة
فتوقفنا . بدنه وثيابه بلون الأرض . وسأله السائق ماذا

يريد ؟ فقال : « أعطوني سيجارة أو تنباك لوجه الله . لي
يومان م أدق طعم التنباك » . لم يكن عنده تنباك فأعطيه
سيجارة . وقلنا بالمرّة نفث قليلا ونسريح من غناء بيوس .
لم أرَ في حياتي انسانا يشرب السجائر بتلك اللهفة . جلس
لاعرابي على مؤخرته وأخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف .
بعد دقيقتين مد لي يده فأعطيه سيجارة أخرى . اتهمها كما
فعل مع الأولى . ثم أخذ يتلوى على الأرض كأنه مصاب
بالصرع . وبعدها تمدد على الأرض وطوق رأسه بيديه وحمد
تماما كأنه ميت . وظل هكذا طول مكوثنا ، رماء ثلث
ساعة . ولما دارت محركات السيارة ، هب واقفا ، إنسانا بعث إلى
الحياة ، وأخذ يحمدي ويدعو الله لي بطول العمر ، فرميت
له علبة السجائر بما بقي فيها . وثار الغبار حلفنا ، وراقبت
لاعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب .
عندها عنيات وأطفال عراة . ابن الظل يا إلهي ؟ مثل هذه
الأرض لا تدست ، لا لأسياء . هذا القحط لا تدأويه إلا
السوء . والطريق لا ينتهي والشمس لا ترحم ، والسيارة الآن
تلول ولولة على أرض من الحصى مبسوطة كاللثة . « إيا قوم
منقطع بنا قحدنونا أحاديث تتجمل بها » . من قال هذا ؟
ثم : « كالنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » . والسائق لا
يتكلم . اعتماد للمكنة التي يديرها ، بلعها أحيانا ويشتمها ،
والأرض حولنا دائرة غرقى في السراب . « وظل يرفعا آل
ويحفضا آل وتلفظنا بيد إلى بيد » . محمد سعيد العباسي ،

له من شاعر . وأبو نواس . هـ شربنا شرب قوم ظمنا من
 عهد عاد . هـ هذه أرض أياك وأشعر ولا أحد يفني .
 ولقنا سيرة حكومة معطلة حولها خسة عساكر وشاوبش
 متدريعين النفاق . وقف . شربو من مائنا وأكلوا من زادنا
 وأعطينهم التزير . قالوا ان امرأة من قبيلة المربصاب قتلت
 زوجها والحكومة ذاهمة لتقض عليها . ما اسمها ؟ ما اسمها ؟
 ماذا قتلته ؟ لا يعلمون - فقط انها من قبيلة المربصاب وانها
 قتلته وأنه زوجها . ولكمهم سيعرفونه . قبائل المربصاب
 والهووير والكبابيش . النقضاة انقيم منهم والمتنقل . مفتش
 شمالي كردفون ، مفتش جنوبي الشمالية ، مفتش شرقي الخرطوم .
 الرعاة على مساقط الماء . الشايخ والمطر . لمدو في حيام
 الشعر ، في سفارق الودين . كلهم سيعرفون اسمها ، فليس كل
 يوم تقتل امرأة رجلا ، بله زوجها ، في هذه الأرض التي لم
 تترك لشمس فيها قتلا لقتل . رخصت لي فكرة ، قلبتها في
 ذهني ثم قررت أن أعبر عنها وأرى ما يحدث . قلت لهم انها
 لم تقتله بل هو مات من ضربة الشمس ، كما ماتت ايريليا سيمور
 وشيلا غريود وآن همد وحسين مورس . لم يحدث شيء .
 وقال الشاوبش : « كان عندما قتل بوليس ملعون اسمه
 ماجور كوك » . لا وئدة . لا دهشة . وساروا وسرنا .
 الشمس هي المدرس انها الآن في كبد السماء تمام ، كما يقول
 العرب . يا لكمد لجرى . وسطل هكذا ساعات لا تتحرك ،
 أو هكذا يحيل للكائن الحي ، حتى يثن الحجر ويبكي

الشجر ويستغيث الحبيد . بكاء امرأة تحت رجل عند الفجر ،
 وفخذان ببضاوان مفتوحتان . هما الآن كعظام الجبال الجافة
 المنتثرة في الصحراء . لا طعم . لا رائحة . لا خبر . لا شر .
 عجلات السيارة تصدم الحصى بحقد . طريقه المموج - مرعائب
 ما يؤدي به إلى الكارثة . وفي الغالب تكون الكارثة واضحة
 أمامه وضوح الشمس ، بحيث اننا نعجب كيف أن رجلاً
 ذكياً كهذا ، هو في الحقيقة في غيبة العباء . انه منح قدراً
 عظيماً من الذكاء ولكنه حرم الحكمة . انه أحق ذكي .
 هذا ما قاله القاضي في « الأولد بيلي » قبل أن يصدر الحكم .
 والطريق لا ينتهي والشمس واضحة وضوح الشمس . سأكتب
 لمز روبنسن . تعيش في شنكلز في آيسل أوف وابت .
 علق عنوانها بذاكرتي من حديث مصطفى سعيد تلك الليلة .
 زوجها مات بالتيفويد ودفن في القاهرة في مقبرة الإمام
 الشافعي . نعم ، اعتنق الإسلام . مصطفى سعيد قال انها
 حضرت المحكمة من أولها إلى آخرها . كان هادناً طول المدة .
 بعد أن صدر الحكم بكى على صدرها . مسحت رأسه وقبلته
 على جبهته وقالت : « لا تلك يا طفلي العزيز » . لم تكن تحب
 جين مورس . حذرته من زواجها . سأكتب لها فلعلها تلقي
 الضوء ، لعلها تذكر أشياء هونسيها أو أهمل ذكرها .
 وانتهت الحرب فجأة بالنصر . شفق المغيب ليس دماً ولكنه
 حناء في قدم المرأة ، والنسيم الذي يلاحقنا من وادي النيل
 يحمل عطراً لن يضرب في خيالي ما دمت حياً . وكما تحط

قافلة رحلها حططن رحلنا . بقي من الطريق أقله . طعمنا
 وشربنا . قد - لي ثأس صلاة العشاء ، والسواق ومساعدوه
 أخرجوا من أضابير السيارة قناني الخمر ، وأنا استلقيت على
 الرمل وأشملت سيجارة وتحت في روعة السوء . والسيارة
 أيضاً نسقت الماء والمزينة ولزيت ، وهي الآن ساكنة راضية
 كمهرة في مرحها . انتهت الحرب بالضرر لنا جميعاً ،
 الحجارة والأشجار والحيوانات والحديد . وأنا الآن تحت هذه
 السماء الجميلة الرحيمة أحس نداء جميعاً أخوة . لذي يسكر
 ولذي يصلي والذي يسرق والذي يزني والذي يقاتل والذي
 يقتل . اليبسوع نفسه . ولا أحد يعلم ماذا يدور في خلد الآله .
 بعد لا نألي . لعله ليس غاضباً . في ليلة مثل هذه تحس أنك
 تستطيع أن ترقى إلى السماء على سلم من الجبال . هذه أرض
 شعر والممكن وبقي اسمها أمل . سنهدم وسنبني وسنخضع
 الشمس ذلتها لأرادتنا . سنهزم الممقر بأي وسيلة . السواق
 الذي كان صامتاً طوال اليوم ها قد ارتفع عقيرته ، لعناء .
 صوت عذب لمسيبيل لا تحسب أنه سوته . يعني لسيارته كما كان
 شعراء في لرمن القديم يغنون للملهم :

در كسوك نخرطة وقايم على بولاد
 وغير ست النفور الليلة ما في رقاد

و رتفع صوت آخر يجاوبه :

ثوبين السفر من دار كول والكمبو

هورز راسه فرحان بالسفر بقتبه
أب دومات غرقن عرقه اتنادن به
ضرب لهجة وأصبح ناره ناكل الحسه

ثم سمع صوت ثالث يجوب للصوتين :

واوحيجي روا وجع قلبي
من صيدة القنص الفتوت صكلي
القاري العلم من دينه بتلمي
والماشى الحجار من جده بتقلي

نحن هكذا وكل سيارة تمر بما طالعة أو نارلة ، تقف ،
حتى جتمت قافلة عظيمة ، أكثر من مائة رجل طعموا
وشربوا وصعدوا وسكروا . ثم تحقفا حلقة كبيرة ، ودخل
بعض لفتيان وسط حلقة ورقصوا كما ترقص الست .
وصفقا وضربنا الأرض بأرجلنا وحممنا بخوفنا ، وأقمنا في
قلب الصحراء فرحاً بالاشيء . وجاء أحد بذياعه الترانزستور ،
وصعد وسط الدائرة ، وصفقا ورقصنا على غنائه .
وحصرت لأحد فكرة ، فصف السواقون سياراتهم على هيئة
دائرة وساطر أضواء على حلق الرقص ، فشتعلت شعلة من
الضوء لا أحسب تلك البقعة رأت مثلها من قبل . ورغرد
الرجال كما ترغرد النساء ونطلقت أبواق السيارات جميعاً في
آن واحد . وحذب الدماء والضجة المدو من شعاب الوديان
ومسوح التلال المجاورة ، رجال ونساء ، قوم لا تراهم بالنهار

كأنهم يذوبون تحت ضوء الشمس . اجتمع خلق عظيم ودخلت
 الحلقة نساء حقيقت ، لو رأيتن نهراً لما أعرتن نظرة ،
 ولكنهن جميلات في هذا الزمان والمكان . وجاء الاعرابي
 مخروف وكأه وذبحه وشوى لحمه على نار أوقده . وأخرج أحد
 المسافرين من السيارة صندوقين من البيرة ورعه وهو يهتف .
 « في صحبة السودان . في صحبة السودان » . ودرت صندوق
 السجائر وعلمب اخلوى ، وغمت الاعرابيات ورقصن ،
 وردد الليل والصحرَاء أصداه عرس عظيم كأننا قبيل من الجن .
 عرس بلا معنى ، مجرد عمل يفسر سم ارتجلاً كالأعاصير
 الصغيرة التي تنفخ في الصحراء ثم توت . وعد المسجرات تترقب .
 عدد الاعراب أدر حهم ، في شعب لأودية . تصيح الناس .
 « مع السلامة . مع السلامة » . وركضوا كل إلى مسيرته .
 أرت المحركات ، وتحولت لأضواء من سلك الذي كان قمر
 خضات مسرح أسود . فعد إلى سابق عهد ، جرد من
 السحرة . واتحمت أضواء السيارات . بعضها نحو الحبوب
 حبوب النيل ، وبعضها نحو الشمال صوب سبل . وثار العسر
 واختفى ثم ثار واختفى . وأدرك الشمس من قمة جبل
 كررى أعلى أم درمان .

دارت لباخرة حول نفسها حتى لا تكون المحركات في مجرى التيار. كل شيء كما يحدث كل مرة . الصفارة المسحوقة ، والقوارب من الشاطئ المقابل ، شجر الجبذ واللنط على رصيف المحطة . الا من فارق عظيم . وخرجت وصافحني محبوب وهو يتجنبني بنظراته . كان وحده في استقبال هذه المرة . وكان خجلاً كأنه يحس بالذنب ، أو كأنه يحتملني أنا المسئولة . ولم أكد أصافحه حتى قلت له : « كيف تركتم هذا يحدث ؟ » قال محبوب وهو يسوي سرج الحمار السوداء الطويلة ، حماره عمي عبد الكريم : « الذي كان . ولدان بخير وهما عندي » . انني لم أفكر في الولدين طوال هذه الرحلة المشؤومة . كنت أفكر فيها . قلت لمحبوب مرة أخرى . « ماذا حدث ؟ » لا يزال يتجنب وجهي . ظل صامتاً . أصلح القفود على السرج ، وربط البطان حول بطن حماره . أزاح السرج إلى الأمام قليلاً وأمسك عنان اللجام ثم قفز . ظلت واقفاً أنتظر الرد الذي لم يأت فقفزت

أنا أيضاً . قال وهو يلكز حمارة . « كما أخبرتك في البرقية .
لا فائدة من الخوض في الموضوع . لم نكن نتوقع حضورك على
أي حال » . قلت له أشجعه على الكلام . « ليتني عملت
بنصيحتك وتزوجتها » . لم أستفد سوى أنني زدت صمته
عمقاً . ولا بد أنه كان غضباً ، فقد لكز الحمارة لكزة قوية
بكمبه والحمارة لم تفعل شيئاً . قلت له وأنا الأحمق ولا الحقه :
« منذ وصلني برقيتك وأنا لم آكل ولم أتم ولم أتكلم مع
إنسان . ثلاثة أيام من الخرطوم بالقطار والساخرة وأنا أفكر
وأسال نفسي كيف حدث ما حدث ولا أجيد الجواب » .
وكانما رثى لحالي فقال بعطف : « هذه أسرع مرة تعود فيها
إلى البلد » . قلت له : « نعم . اثنان وثلاثون يوماً بالضبط » .
قل : « هل من جديد في الخرطوم ؟ » قلت له : « كنا
مشغولين في مؤتمر » . بدا لاهتمام على وجهه . فإنه يحب
أخبار الخرطوم ، خاصة أخبار الفضائح والرشاوي وفساد
الحكام . قال باهتمام بالغ واضح ، وقد حز في نفسي أنه نسي
ما نحن فيه : « بماذا يأترون هذه المرة ؟ » قلت له بأعياء ،
وقد فضلت اختصار الطريق « وزارة المعارف نظمت
مؤمراً دعت له مندوبين عن عشرين قطراً أفريقياً لمناقشة
سبل توحيد أساليب التعليم في لقارة كلها . كنت أنا عضواً
في سكرتارية المؤتمر » . قال محبوب : « فليبنوا المدارس
أولاً ثم يناقشوا توحيد التعليم . كيف يفكر هؤلاء الناس ؟
يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا

أولاداً يسافرون كذا ميلاً لعدسة . ألسنا بشراً ؟ ألسنا
ندفع الضرائب ؟ أليس لنا حق في هذا البلد ؟ كل شيء في
الخرطوم . ميزانية الدولة كلها تصرف في الخرطوم . مستشفى
واحد في مروي يسافر له ثلاثة أيام ، النساء يمتن أثناء الوضع .
لا توجد داية واحدة متعلمة في هذا البلد . وأنت ماذا تصنع
في الخرطوم ؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة
ولا يفعل شيئاً ؟ »

كانت حمارتي قد فاتته ، فجذبت لحامها حتى يلحق بي
وآثرت لصمت . لو كان الوقت غير هذا الوقت لصرخت في
وجهه ، فأنا وهو هكذا منذ طفولتنا ، يصرخ أحدهما على
الأخر حين يعصب . ثم نرضى ونسى . ولكنني حائض ومتعب
وقلبي مثقل بهم عظيم . لو كان الزمان أحسن مما هو عليه
لآر ، لأضحكته وأعصبته بقصص ذلك المؤثر . لن يصدق
أن سادة أفريقيا الحدد ، ملئ الوجوه ، أفواههم كأفواه
الذئاب ، تلمع في أيديهم ختم من الحجارة الثمينة ، وتقوح
نواصيتهم برائحة العطر ، في أرداء بيضاء وررقاء وسوداء
وخضراء من لموهر الفاخر والحرير العالي تنزلق على أكتافهم
كجلود لقطط الليامية ، والأحذية تمكس أضواء الشمعدانات ،
تصر صريراً على الرحام — لن يصدق بحجوب أنهم تدارسوا
تسعة أدم في مصير التعليم في أفريقيا في « فاعة الاستقلال »
التي بنيت لهذا الغرض ، وكلفت أكثر من مليون جنيه ، صرح

من الحجر والاسمنت والرخام والزجاج ، مستديرة كاملة الاستدارة ، وضع تصميمها في لندن ، ردهاتها من رخام أبيض حלב من إيطاليا وزجاج النوافذ ملون ، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك ، أرضية القاعة معروشة بسجاجيد عجمية فاخرة ، والسقف على شكل قبة مطلية بآه الذهب ، تتدلى من حوائرها شمعانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم . لمصة حيث تعاقب ورراء لتعليم في أفريقيا صوال تسعة أيام من رخام أحمر كالندي في قبر نابليون في الانفاليد ، وسطحها أملس لمصع من خشب لابسوس . على الحيطان لوحات ربتية ، وقبالة المدخل خريطة واسعة لأفريقيا من المرمر الملون ، كل قطر بلون . كيف أقول للحجوب أن الورير الذي قال في خطبه الضافي الذي قوبل بمحافة من التصفق : « يجب ألا يحدث تناقض دين ما يتعلمه التلميذ في مدرسة وبين واقع الشعب . كل من تعلم اليوم يريد أن يجلس على مكعب وثير تحت مروحة ويسكن في بيت محاط بحديقة مكيف دلهواء يروح ويحيى في سيارة أمريكية معرض الشارع . ان إاد لم نجتث هذا الداء من جذوره تكونت عند طبقة رجوازية لا تمت إلى واقع حياتنا بصلة ، وهي شذ خصرأ على مستقبل أفريقيا من الاستعمار نفسه » - كيف نقول للحجوب أن هذا الرجل بعينه يهرب أشهر الصيف من أفريقيا إلى فيلته على بحيرة لوكارو ، وان زوجته تشتري حباياتهم من مرودر في لندن ، تحييم في طائرة خاصة ، وأن

أعضاء وفده أنفسهم يجاهدون بأنه فاسد مرتش ، ضيع الضياع وأقام تجارة وعمارة ، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق التي تنضح على جباه المستضعفين أنصاف العراء في الغابات ؟ هؤلاء قوم لائم لهم إلا بطونهم وفروجهم . لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وقد قال مصطفى سعيد : « إنما أنا لا أطلب المجد ، فشلي لا يطلب المجد » . لو أنه عاد عودة طبيعية لأنضم إلى قطيع الذئاب هذا . كلهم يشبهونه ، وجوه رسمية ووجوه وسمتها النعمة . وقد قال أحد الوزراء أولئك في حفلة اختتام المؤتمر أنه كان استاذة . أول ما قدموني له هتف : « انك تذكرني بصديق عزيز كنت على صلة وثيقة به في لندن . الدكتور مصطفى سعيد . كان أستاذي عام ١٩٢٨ . كان هو رئيساً لجمعية الكفاح لتحرير أفريقيا وكنت أنا عضواً في اللجنة . يابه من رجل . انه من أعظم الأفريقيين الذين عرفتهم . كانت له صلات واسعة . يا إلهي ، ذلك الرجل . كانت النساء تتساقط عليه كالذباب . كان يقول سأحرر أفريقيا ب... ي ، وضحك حتى بانث مؤخرة حلقه . وأردت أن أسأله ، لكنه اختفى في زحمة الرؤساء والوزراء . مصطفى سعيد لم يعد يعنيني الآن ، فقد شغلت عنه بنفسه . برقية محجوب غيبت كل شيء . حين قرأت رد مسز روبنسن على رسالتي أول مرة أحسست بفرح عظيم . وفي القطار قرأتها للمرة الثانية ، محاولاً أن أبعد أفكارني عن تلك النقطة التي صارت محور دورانها . ولكن دون جدوى .

ومضت الحير تتقاذف الحجارة بأظلافها ، وقال محجوب :
« لماذا صمت كأنك أبكم ؟ لماذا لا تقول شيئاً ؟ » قلت له :
« الموظفون أمثالي لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً . إذا قال
سادقنا افعلوا كذا فعلنا أنت رئيس الحزب الوطني الاشتراكي
الديموقراطي هنا . انه الحزب الحاكم . لماذا لا تصب غضبك
عليهم ؟ »

وقال محجوب كالمعتذر : « لولا ... لولا أن هذه الكارثة
قد ... يوم الحادث كنا نتأهب للسفر في وفد المطالبة ببناء
مستشفى كبير ومدرسة وسطى للبنين ومدرسة أولية للبنات
ومدرسة زراعة و ... » وقطع خطبته فجأة ولاذ بصوته
الغاضب . ونظرت أنا إلى النهر إلى يسارنا يلعب بالخطر ويدوي
بأصوات مبهمة . ثم أمامنا القباب العشر وسط المقبرة .
وحزت الذكرى في قلبي ، وقال محجوب : « دفناها أول
الصباح دون صوضاء . أمرنا النساء ألا يبكين لم نقم مانعاً
ولم نخبر أحداً . كان سيجيئنا البوليس . وتحقيق وفضائح » .
قلت له بدعز : « لماذا البوليس ؟ » نظر إلي برهة ثم سكت ،
وبعد مدة طويلة قال : « بعد أسبوع أو عشرة أيام من سفرك ،
أبوها قال انه أعطى ود الرئيس وعداً . عقدوا له عليها .
أبوها شتمها وضربها وقال لها : تتزوجينه رغم أنفك . أنا لم
أحضر العقد . لم يحضر أحد العقد غير بكري وجدك وبنت
محجوب . أصدقؤه . أنا شخصياً حاولت أن أثني ود الرئيس

عن عزمه ، ولكنه أصر . كأنما أصابه هوس . وكلمت أداها
فقال انه لا يصح اضحوكه ، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه .
بعد الزوج قلت لود الرئيس يأخذها بلباسه . أقامت عنده
اسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها . كانت ... كان في حالة لا توصف .
كالجنون . اشتكى لطوب الأرض . يقول كيف تكون في
بيتة امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بيها ما يكون
بين الزوج وروchte . كما نقول له : صبر . ثم ...

الحمار و الحماره نهقا بعنة في آن واحد حتى كدت أسقط
من على لسرج . ولبثت أسأل يومين بطولها ولا أحد يقول
لي . كلهم كانوا يتجنبوني بنظراتهم كأنهم شركاء في إثم عصم .
وقالت أمي . « ماذا تركت عملاك وجئت ؟ » قلت هـ :
« الولدان » . نظرت إلي برهة نظرة فاحصة وقالت :
« الأولاد » أم ، أم الأولاد ، ماذا بيك وببها . جاءت
لأبيك وقالت له بلسانها : قولوا له يستزوجي . يا فخرأة
وفراغة العين . « نساء آخر زمن » . وكله كوم والفعل انقبیح
الذي فعلته كوم .

وجدي أيضاً لم يسمفني بشيء . وحدته راقداً على سريريه
في حالة من الإعياء لم أعرفها فيه . كان كأنه ينوء الحياة
عنده قد مضى فجأة ظلمات جالسا وظل هو لا يتكلم .
فقط يتأوه من آن لآخر ، ويتقلب على سريريه ويستغيث الله
من الشيطان الرحيم . كلما فعل ذلك أحس بوخز ، كأنه ينني

وبير الشيطان - بيا . وبعد انتظر طويل قال يخطب سقف
 الغرفة . « لعنة الله على النذوان . النذوان احوات الشيطان .
 ود لريس ، ود لريس » . وانهجر حدي يبكي . اني لم
 اره يبكي في حياتي . بكي صويلاً ثم مسح دموعه بصرف
 ثوبه وصمت حتى طفتة قدوم بعد زمن قال : « رحمة
 الله عليك يا ود الريس . اللهم اغفر له وتغمده برحمتك » .
 ونغم بدعوات وقال : « كان رجلاً عديم الضير ، دائماً
 يصحح ، دائماً تجده وقت بشدة . لم يطلب منه أحد حاجة
 وقال لا . ليته سمع كلامي . ينتهي هذه النهاية . لا حول
 ولا قوة ، لا الله . أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا
 البلد منذ خلقه الله . نحن آخر الزمن » . تشجعت وسألته :
 « ماذا حدث ؟ »

لم يحفل بـؤالي وتشغل رماً بحسبته ثم قال : « تلك
 القبيلة لا يحجيء من وراءها إلا الشر . قلت لود الريس : هذه
 المرأة شؤم . أبعد عنها . انما الأحل ... »

في صبيحة اليوم الثالث حملت زحاجة لوسكي في حبي
 وذهبت إلى بنت مجذوب . إذا لم تال لي بنت مجذوب فلن
 يقول لي أحد . وصلت بنت مجذوب من الزحاجة في إثناء كبير
 من الامون ، وقالت : « لا بد انك تريد شيئاً . نحن لا نعرف
 هنا مثل خمر امون هذه » .

قلت لها . « أريد أن أعرف ما حدث . لا أحد يريد أن يخبرني » .

شربت حرة كبيرة من الإء وقطبت وجهها وقالت :
« الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يجري به اللسان . شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق » .

وتماسكت ، ولبثت أنتظر صابراً حتى مضى ثلث الزجاجة والحر لا تؤثر فيها ، إلا من بهجة وجهها تردد وضوحاً مع الشراب . أغلقت بنت مجذوب الزجاجة وقالت : « هذا يكفي . خمر النصارى هذه جبارة » ليست كعرق التمر ،

نظرت اليها بضراعة فقالت : « الكلام الذي سأقوله لك لن تسمعه من إنسان في البلد . دفنوه مع بنت محمود ومع ود الرئيس المسكين . كلام عيب صعب أن يقل » . ثم نظرت إلي نظرة فاحصة بعينها الحريتين وقالت :

« هذا كلام لن يعجبك . خصوصاً إذا ... » وأطرقت برهة فقلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث كبقية الناس . لماذا أنا لوحيد الذي لا يصح له أن يعرف ؟ »

أعطيتها سيجارة جذبت منها نفساً وقالت : « بعد صلاة العشاء بزمان استيقظت على صراخ حسة بنت محمود في دار ود الرئيس . كان البلد ساكناً لا تسمع فيه حساً . الحق لله انني ظننت أن ود الرئيس أخبراً قال حقه منها . الرجل

المسكين أشرف على الجنون . أسبوعين مع المرأة لا نكلاها ولا تدعه يقرها . وفتحت أذني مرة وهي تصرخ وتقول . اللهم يا رب اغفر لي . ضحكت وأنا أسمع صراخها . قلت في نفسي : ود اريس ما تزال فيه بقية . وشد الصراخ . وسمعت حركة في بيت بكري لصق بيت ود اريس . وسمعت بكري يصيح : يا راجل اخشي على دمك . لازم تعمل لك فصيحة وهلولة . ثم سمعت معيدة امرأة بكري تقول : يا بت احفظي شرفك ، ما هذه الفضائح ؟ العروس البكر لا تعمل هذا العمل . كالك لم تجربي الرجال من قبل . وأخذ صراخ بنت محمود يشتد ، ثم سمعت ود اريس يصرخ بأعلى صوته : يا بكري . يا حاج أحمد . يا بت اريس . يا جماعة . بت محمود قتلتني . قفزت وثوبي يخرج رائي لا يكاد يسترني ، وخطيت باب بكري وباب محجوب ، وجريت إلى باب ود اريس فوجدت باب الحوش مغلقاً . ولولت بأعلى صوتي وجاء محجوب ثم بكري ثم اجتمع عينا الناس . ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من ود اريس . ثم صرخة مثلها من بنت محمود . ودخلت أنا محجوب وبكري . قلت لمهجوب : احبس الناس من دخول البيت . لا تدع امرأة تدخل البيت . وخرج محجوب وصرخ في الناس ، وعاد ومعه عمك عبد الكريم ومعبد الظاهر الراسي وحق جدك المسكين جاء من بيته .

أخذ لعرق يتصبب به مزاراة من وجه بنت مجذوب .
وجف حلقها وأشارت إلى الماء فجعلتها به . ضربت ومسحت
لعرق من وجهها وقالت . « أستغفر الله العظيم وأتوب إليه .
وجدتها في عرفة ود الرئيس القصيرة المطة على الشرع . كان
المصباح موقداً . ود الرئيس عارياً كما ولدته أمه . وبنت محمود
ثوبها ممزق رسراويلها . هي الأخرى عارية . كان البرش
لأحر يعوم في الدم . ورفعت المصباح . وجدت بنت محمود
معضومة ومحدشة في كل شبر من جسمها . بطنها . أوراكها .
رقبتها . عض حلة يدها حتى قصعها . الدم يسيل من شفتها
السفلى . لا حول ولا قوة إلا بالله . وود الرئيس مطعون أكثر
من عشرة طعنات . طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه .
ولم تستضع بنت مجذوب أن تستمر . بلغت رقبتها
بصعوبة وارتعش حلقها ثم قالت : « اللهم لا تتراض على
حكمتك . وحدها على ظمها والسكين مفروار في قلبها .
مها مفتوح ، وعيناها تحلقان كأنها حية . وود الرئيس
سانه مدلل بين فكبيه ، وذراعا مرفوعتان في الهواء ،

وغطت بنت مجذوب وجهها بيدها والعرق يتصبب من
بين أصبعها وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وتتابع .
قالت بصعوبة . « أستغفر الله لعظيم . كأننا قد ماتنا لساعتها .
كان الدم حاراً يبقبق من قلب بنت محمود وبين فحذي ود
الرئيس . الدم ملاً العرش والسرير وجرى جداول في أرض

لعرفة . محجوب أطال الله عمره كان رابط اجاش . حين
سمع صوت محمود فغز حارجاً وقال لأبيك : اباك أنت تدعه
يدخل . محجوب ، وبقية الرجال حملوا ود لريس ، وأنا وزوجة
بكري والنساء الكبار أخذنا بنت محمود . كفناهما في ليلتهما .
وحملوهما قبل طوع الشمس . ودفنوهما ، هي بجوار أمها
وهو بجوار زوجته الأولى بنت رجب . بعض النساء بدأ
مائاً . ولكن محجوب بارك الله فيه جاء ونهرهن وقال : اني
تفتح فمها سأقطع رقبتها . أي مائم يا ولدي يقام في هـ هذه
الحالة " هذه مصيبة كبيرة حصلت في ليلته . طول حياتنا
تحت ستر الله . آخر لرمز يحصل علينا مثل هذا . أستفقر
وأقرب إليك يا رب »

وسكت هي أيضاً كما بكى جدي . بكيت طويلاً وبجراحة ،
ثم انقسمت من خلال دموعها وقالت : « العجيب في الأمر أن
روحته الكبيره مدروكه لم تصح من نومها طول هذه المدة ،
مع أن الصياح جذب الناس من طرف المحلة . رحت إليها
وهزتها ورفعت رأسها وقالت : « بنت محجوب ، ماذا جاء
بك في هذا الوقت ؟ » قلت لها : « قومي . حصلت قتلة في
بيتكم » . فقالت : « قتلة من ؟ » قلت لها . « بنت محمود
قتلت ود الريس وقتلت نفسها » . فقالت : « في سني داهية
وراصلت نومها . وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرها .
ولما عاد الناس من لدفن وحدها حلسة تشرب قهوتها .

بعض النساء أردن أن ييكن معها فصرخت فيهن : « يا ساء .
كل واحدة تزوج في حالها . ود الرئيس حمر قمر بده .
وبنت محمود برك الله فيها ، خلصت منه القديم والجديد .
ثم زغردت أي والله يا ولدي ، زغردت . وقالت للنساء :
« نكايه فيكن . التي لا يعجبها تشرب من البحر » . أستغفر
الله العظيم . أبوها .. محمود في تلك الليلة كاد يهلك من البكاء .
يخور كالثور . وجمدك شتم وضرب بعصاه وزعق وبكى .
عمك عبد الكريم اشتبك مع يكرى دون سبب . قال له :
يحصل ذبح يحوارك وأنت نائم ؟ البلد كلها كأنف حل عليه
الشياطين في تلك الليلة . محبوب وحده كان رابط الحاش .
حز كل شيء . أحضر الأكفان لا ندرى من أين . أولاد ود
الرئيس عملوا دوشة فأسكتهم . منظر لا أراك الله مثله
يا ولدي ، يفطر القلب ، يشيب الوليد . وكله بلا سبب
ولا طلب . انها قتلت الرجل الغريب ، لماذا لم تقبل ود
الرئيس ؟ »

الحقول نيران ودخان . هذا أوان الاستعداد لزراعة
القمح . ينظمون الأرض ويجمعون أعواد الذرة والجدوع
الصغيرة ، ذكريات الموسم الذي انتهى ، ويكومونها أكواماً
وسط الحقول ويحرقونها . الأرض سوداء مبسوطة تتعد
للحدث القادم . الرجال قاماتهم منحنية على الماويل وبهضم
خلف المحاريث . قم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتكن ،

وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية ، تحت رضاء الشمس في منتصف النهار . ومع كل هبة ربيع بفرح أربح الليمون والبرتقال واليوسفندي . خوار ثور أو هيق حمار أو صوت فأس في الحطب ولكن الدنيا قد تغيرت .

ورجدت محجوباً ملطخاً بالطين ، يمدى العرق من جسمه اعاري إلا من خرقه حول وسطه . يحاول أن يفصل شتلة عن النخلة الأم . لم أحياه ولم يلتفت إلي وظل يحفر حول الشتلة . لشت وقفاً أرقبه ، ثم اشعلت سيجارة ومددت له الصندوق ، فرفض بإشارة من رأسه . حملت هي إلى جذع نخلة قريبة أسدت رأسي إليه . لا مكان لي هنا . لماذا لا أحزم حقيقتي وأرحل ؟ هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء . حسبوا لكل شيء حايه . لا بفرحون لمولد ولا يحزون لموت . حين يضحكون يقولون : « أستغفر الله » وأنا ماذا تعلمت ؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر . وأن ماذا تعلمت ؟ ولاحظت محجوباً عاضاً شفته السفلى كعادته حين يكون مصمماً على عمل . كنت أغلبه في المصارعة والجري ، ويفليني في سباحة النهر إلى الشاطئ الآخر وتسلق النخل . لا تستعصي نخلة عليه . بيني وبينه من الود كأنه أخ شقيب . ولعن محجوب النخلة الصغيرة حين نجح أخيراً في فصلها عن جذع 'مها دون أن يكسر جذورها . ردم بالتراب الجرح الكبير الذي بقي في الجذع

عبث كانت ، وقص جريد الشتلة ، وأزال عنها التراب ،
ورماها تجف في الشمس . قلت في نفسي انه سيكون كثير
سمداد للكلام لأن جاء إلى انظر حيث أنا وحلست ومدد
رجليه . ظل صامتا برهة ثم تنهد وقال : « أستغفر الله » .
مد يده فأعطيته سيجارة . لا يدخن إلا حين أكون أنا في
البلد ، يقول : « نحرق فلوس الحكومة » . رمى السيجارة
فمن أن يكملها وقال : « أنت تسد مريضاً . لا بد أن
برحة قد أرهقتك . لم يكن ينزم حضورك حين أرسلت
لك البرقية لم أكن أتوقع أن تحضر » .

قلت كأنني أحدث نفسي : « انها قتلتها وقتلت نفسها .
طعنته أكثر من عشر طعنات و .. يا للبشاعة » .
الفتت إلي بدهنة وقال : « من أخبرك ؟ »

مضيت غير مكترث لسؤاله : « عص حلمة نهدها حق
قطعه وعضها وحدثها في كل شبر في جسمها . يا لبشاعة » .
صاح بحجوب بعصب : « لا بد ان بنت مجذوب هي لقي
أخبرتكَ . لعنها الله . لا نمسك لسانها هذا كلام لا يصح أن
يقال » .

قلت له : « يقال أو لا يقال ، انه حدث . حدث أمام
أعينكم ولم تفعلوا شيئاً . وأنت . أنت رعيم ورئيس في
البلد ولم تفعل شيئاً » .

وقال محبوب : « ماذا نفعل ؟ لماذا لم تفعل أنت ؟ لماذا لم تتزوجها ؟ فقط قفّح في الكلام . المرأة هي التي تجرأت وقالت . عشا ورأينا لساء تخطب الرجال »
قلت له : « ماذا قالت ؟ »

قال : « الذي كان قد كان . ما فائدة الكلام ؟ احمد الله انك لم تتزوجها . العمل الذي فعلته ليس فعل بني آدم . فعل شياطين » .

قلت له وأنا أضغط على أساني : « ماذا قلت ؟ »
نظر إلي دون عطف وقال : « حين راح لها أبوها وشتتها جاءتني في البيت مع شروق الشمس . قالت تخلصها من ود اريس وزحمة الخطاب . فقط تعقد عليها . لا تريد منك شيئاً . قالت يتركني مع ولدي ، لا أريد منه قليلاً ولا كثيراً قلت لها : لا تدخلك في لش كل . نصحتها ان تقبل الأمر الواقع . ابوها ولي امرها وهو حر التصرف . وقلت لها : ود الريس لن يعيش إلى الأبد . رجل مجنون وامرأة مجنونة . ما ذنبنا نحن ؟ ماذا كان بوسعنا أن نفعل ؟ مسكن أبوها . منذ ذلك اليوم المشؤم وهو طريح الفراش . لا يخرج ولا يقابل أحداً . ماذا أفعل أب أو غيري إذا كانت العام قد أصيب بالخبل ؟ واتضح أن حنون بنت محمود ليس مثله في الأولين ولا الآخرين » .

قلت له وأنا أبذل جهداً كبيراً حق لا أبكي : « حسنة لم تكن مجنونة . كانت أعقل امرأة في البلد . أنتم الهالين .

كانت أعقل امرأة في البلد . وأجل امرأة في البلد . حنة لم تكن مجنونة .

ضحك محبوب . قهقه بالضحك . سمعته يقول ويضحك :
« يا للعجب . يا بني آدم أصح لنفسك . عد لصوابك .
أصبحت عاشقاً آحر الزمن . جذت مثل ود الرئيس .
المدارس والتعليم رهفت قلبك . تبكي كالنساء . أما والله
عجائب . حب ومرض وبكاء . إنها لم تكن تساوي ملي .
لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن . كنا نرميها في البحر أو
نترك جثتها للصقور . »

الذي حدث بعد ذلك ليس راضحاً تماماً في ذهني .
وسكنني أذكر .. يدي مطبقتين على حلق محبوب ، وأذكر
جحوظ عيني وأذكر ضربة قوية في بطني ، وأذكر محبوباً
حائماً على صدري . وأذكر محبوباً ملقى على الأرض وأنا
أركله بقدمي . وأذكر صوته يصرخ : « مجنون . مجنون . »
وأذكر لفظاً وصباحاً وأنا أصفط بيدي على حلق محبوب ،
وأسمع قرقرة ، وبدأ قوية تجذبني من رقبتي ، ثم وقعت عصا
ثقيلة على رأسي .

العالم فجأة انقلب رأساً على عقب . الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . إنه الحق . أنا حاقد . وطالب ثأر وغريمي في الداخل ولا بد من مواجهته . ومع ذلك ما تزال في عقلي بقية تدرك سخرية الموقف . انني أبتدىء من حيث انتهى مصطفى سعيد ، إلا أنه على الأقل قد اختار وأنا لم أختار شيئاً . قرص الشمس ظل ساكناً فوق الأفق الغربي زمناً ثم اختفى على عجل . وجيوش الظلام المسكرة أبداً غير بعيد وثبتت في لحظة واحتلت الدنيا . لو أنني قلت لها الحقيقة لعلها لم تكن تفعل ما فعلت . حسرت الحرب لأنني لم أعلم ولم أختار . ووقفت زمناً صويلاً أمام باب الحديد . أنا الآن وحدي ، لا مهرب لا ملاذ ، لا ضمان . عالمي كان عريضاً في الخارج ، لأن قد تقلص وارتد على أعقابهِ حتى صرت العالم أنا ولا عالم غيري . أين إذن الجذور الضاربة في القدم ؟ أين ذكريات الموت والحياة ؟ ماذا حدث للقافلة والقبيلة ؟ أين راحت رغاريد عمرات الأعراس وفيضانات النيل وهبوب الريح صيفاً وشتاء

من الشمال والجنوب ؟ الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . إنه
الحقد . ها أنذا أقف الآن في دار مصطفى سعيد أمام « باب
الحديد » ، باب لغرفة المستطيلة المثلثة السقف الخضراء
السواقد . المفتاح في جيبى وغريمي في الدخول على وجهه سعادة
شيطانية لا شك ؟ أنا الوصي والعاشق ولغريم .

أدركت المفتاح في الباب فافتح دون مشقة . استقبلتني
رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة . انني أعرف
هذه الرائحة . رائحة الصندل والند . وتحسست الطريق
بأطراف أصابعي على الحيطان . اصطدمت بزجاج نافذة .
فتحت مصاريع الزجاج وفتحت مصاريع الخشب . فتحت
نافذة وأخرى وثالثة . ولكن لم يدخل من الخارج سوى
مزبد من الظلام . أوقدت ثقاباً . وقع الضوء على عبي كوقع
الانفجار . وخرج من الظلام وجه عبس زائماً شفتيه أعرفه
ولكنني لم أعد أذكره . وخطوت نحوه في حقد . إنه
غريمي ، مصطفى سعيد . صار للوجه رقبة ، والرقبة كتفان
وصدر ثم قامة وساقان . ووجدتني أقف أمام نفسي وجهاً
لوجه . هذا ليس مصطفى سعيد . أهـ صورتي تعبس في
وجهي من مرآة . اختفت الصورة فجأة وجلست في الظلام
رمناً لا أدري حبابه أرهف اسمع ولا أسمع شيئاً . اشعلت
ثقاباً آخر فابتسمت امرأة ابتسامة مريرة . وجلست في
واحة الضوء ربطرت حولي فاذا مصباح قديم على المنضدة

أكد ألمه بيدي . هرزته فذا فيه ربت . يا للعجب .
أوقدت المصباح فتاعدت الطلال وتباعدت الحيطان وارتفع
السقف . أوقدت المصباح وأغلقت النوافذ . يجب أن تظن
الرائحة حبيسة هنا . رائحة الطوب والخشب والند الحريق
والصندل . . والكتب . يا إلهي . الحيطان الأربعة من الأرض
حتى السقف . رفوف ، رفوف ، كتب ، كتب كتب . أشعلت
ميجارة وملأت رثتي بالرائحة الغريبة . يا له من مغفل . هل
هذا فعل إنسان أراد أن يبدأ صفحة جديدة ؟ سأفوضها على
رأسه . سأحرقها . وأشعلت النار في الساط الساعم تحت
قدمي ولبثت أراقبها وهي تلتهم ملكاً فارسياً عى جواد
يسدد رعه نحو عزال يعدو مبتعداً . ورفعت المصباح فاذا
أرضية الغرفة كلها مغطاة بأبسطه فارسية ورأيت أن
الحائط اعقاب لساب ينتهي بفراع . ذهبت إليه ولصاح في
يدي فاذا هو . . . يا للحماقة ، مدفأة . تصوروا ، مدفأة
انكليزية بكامل هيئتها وعدتها ، فوقها مظلة من النحاس وأمامها
مربع مبلط بالرخام الأخضر ورف المدفأة من رخام أزرق
وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوتان بقماش من
الحرير المشجر بينهما مضمة مستديرة عليها كتب ودفتر .
ورأيت وجه المرأة التي ابتسمت لي قبل لحظات . لوحة زيتية
كبيرة في إطار مذهب على رف المدفأة والنوقيع في الركن
الأيمن (م . سعيد) . ونقبت إلى النار في وسط الحجرة
تكاد تكون حريقاً . خطوات نحوها ثاني عشرة خطوة عدتها

وأنا أخطو ودستها بجذائي حتى نطفأت ، أنا طالب ثار
 ولكنني لا أستطيع أن أقدم حب الاستطلاع ، سأرى أولاً
 وأسمع ثم أحرقها فكانها لم تكن . والكتب .. على ضوء
 المصباح أراها مصنفة مرتبة . كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب
 علم الحيوان . جيولوجيا . رياضيات . فلك . دائرة المعارف
 البريطانية ، غبون . ماكولي . طويني . أعمال برناردشو
 كلها كينز . توني . سميت . روبنسن ، اقتصاد المنافسة
 الغير كاملة . هبن ، الامبريالية . روبنسن ، مقالة .. عن
 الاقتصاد الماركسي . علم الاجتماع . علم الأجناس . علم النفس
 طوماس هاردي . طوماس مان . أي جي مور ، طوماس
 مور ، فرجينيا وولف . وتفشتاين . أينشتاين . برايري .
 تامير . كتب سمعت بها وكتب لم أسمع بها . دواوين لشعراء
 لا أعلم بوجودهم . يوميات غردون . رحلات غلفر كلبنغ .
 هوسمان . تاريخ الثورة الفرنسية ، طوماسي كارلايل .
 محاضرات عن الثورة الفرنسية ، لورد أكنز . كتب مجلدة
 بالجلد . كتب في أغلفة من الورق . كتب قديمة مهلهلة .
 كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها . مجلدات ضخمة في
 حجم شوارع القبور . كتب صغيرة مذهبة الخواقي في حجم
 ورقة الكتشينة . توقيعات . اهداءات . كتب في صناديق
 كتب على الكرسي . كتب على الأرض . أية دعاية هذه ؟
 ماذا يقصد ؟ اوون . فورد . ستيفان رفاينج . أي جي براون
 لاسكي . هازلت . أليس في أرض العجائب . رتشاردز . القرآن
 بالانكليزية . الانجيل بالانكليزية ، غلبرت مري . افلاطون . اقتصاد

الاستعمار ، مصطفى سعيد . الاستعمار والاحتكار ، مصطفى
سعيد . الصليب والبارود ، مصطفى سعيد . اغتصاب أفريقيا
مصطفى سعيد . بروسبرو وكالبان . الطوطم والتابو . دارتي
لا يوجد كتاب عربي واحد . مقبرة . ضريح . فكرة مجنونة .
سحن . فكتة كبيرة . كنز . افتح يا سمسم ودعنا نفرق
الحواهر على لناسر . السقف من خشب البلوط وفي الوسط
قوس يفصل الحجرة نصفين ، يسنده عمودن رخاميان لونها
أصفر ضارب إلى الحمرة . والقوس عليه قشرة من القيشاني
مزر كش الحواف . وأنا أنصدر مائدة مستديرة لا أدري من
أي خشب هي ولكن سطحها داكن يلمع . وعلى كل من
الحبيين خمس كرامى مبطنة بالجلد . وإلى اليمين كنية ذات
منند واحد ، مكسوة بمخمل أزرق ، وسائد من ... لمستها
بيدي ، نعم من ريش النعام . ورأيت على يمين المدفأة وعلى
يسارها أشياء لم ألاحظها من قبل . على اليمين منضدة طويلة
عليها شمعدان من الفضة فيه عشر شموع لم تمسها النار قبلاً ،
وكذلك على اليسار . أوقدتها شمعة شمعة ، فأضاءت أول
ما أضدت اللوحة الزيتية على رف المدفأة . وجهه مستطيل
لامرأة واسعة العينين حاجباهما ينعقدان فوقهما . الأنف
أكبر قليلاً مما يجب والفم يميل إلى الانساع . وأدركت أن
رفوف الكتب الرجالية في الحائط المقابل للباب لا تصل
إلى الأرض ولكنها تنتهي على جانبي المدفأة بدواليب مدهونة
بطلاء أبيض بارزة عن رفوف الكتب مقدار قدمين أو ثلاثة .

وكذلك على امتداد الضلع الآخر إلى اليسار . وذهبت
إلى الصور المصقوفة على الرف . مصطفى سعيد يصحك ،
مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى
سعيد في مكان ما في الريف ، مصطفى سعيد في الزي
الجامعي ، مصطفى سعيد يجذف في السيربنتاين ، مصطفى
سعيد في قنيلية المبلاد ، على رأسه تاج ، أحد الموك الثلاثة
الذين جلبوا العطور والمر للمسيح ، مصطفى سعيد يتوسط
رجلا وامرأة ، مصطفى سعيد لم يترك لحظة تمر إلا وسجلها
للكرى والتاريخ . وأمسكت صورة امرأة وتمعت فيها ،
وقرأت الإهداء بخط مسبق : « من شيلا مع كل حي » .
شيلا غرينود بلا شك . قروية مر ضواحي هـل ، أغراها
بالهدايا والكلام المعسول والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه .
دوختها رائحة الصندل المحروق والند . حلوة الوجه فعلا ،
تبتسم في الصورة وفي جيدها عقد ، من العاج بلا شك .
ذراعاه مكشوفتان وصدرها بارز . كانت تعمل خادمة في
مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البرلينكيبك . كانت
ذكية تؤمن بأن مستقبل للطبقة العاملة ، وأنه سيحيي يوم
تعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم أخوة . كانت تقول له :
« أمي ستجن وأبي سيقتلني إذا علم أنني أحب رجلا أسود
ولكنني لا أبالي » . قال : « كنت تغني لي أغاني ماري لويد
ونحن عراة . كنت أقضي معها أمسيات الخميس في غرفتها
في كامدن تاون وأحيانا تقضي الليل معي في شقي . كانت

تلحس وجهي بلسانها وتقول لي : لسانك قرمزي بلون
الغروب في المناطق الاستوائية . كنت لا أشبع منها ولا
تشبع مني . تتأملني كل مرة كأنها تكتشف شيئاً جديداً .
تقول لي : ما أروع لونك الأسود ، لون السحر والغموض
والأعمال العاصحة . لقد انتحرت . لماذا انتحرت شيلاً
غرينود يا مستر مصطفى سعيد ؟ أنا أعلم أنك تحبسه في
مكان ما من هذه لقبرة الفرعونية التي سأحرقها على رأسك .
لماذا قتلت حبيبته بنت محمود ود الرئيس الشيخ وقتلت نفسها
في هذه القرية التي لا يقبل أحد فيها أحداً ؟

والثقت صورة أخرى وقرأت الإهداء بخط عريض يميل
إلى الأمام : « لك حتى الممات - إيزابيلا » . مسكنة
إيزابيلا سيمور ، التي أحس بعطف خاص نحو إيزابيلا سيمور .
مستديرة الوجه ، تميل إلى المدانة ، تبس رداء قصيراً بقبايع
ذلك الوقت . ليست تماماً مثلاً من البرونز كما وصفها ولكن
في الوجه طيبة واضحة وتفاؤلاً بالحياة . تبسم . هي أيضاً
تتسم . قال أنها كانت زوجة لحراج ناحج ، أما لستين وابن .
قضت أحد عشر عاماً في حياة زوجية سعيدة ، تذهب
للكنيسة صباح كل أحد بانتظام ، وتساهم في جمعيات البر .
ثم قابلته واكتشفت في أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة
من قبل . وبالرغم من كل شيء تركت له رسالة تقول فيها :
« إذا كان في السماء إله ، فأنا متأكدة أنه سينظر بعين العطف
إلى طيش امرأة مسكنة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول
قلبها ، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج .

ليس يحني الله ويمنحك من السعادة مثل ما منحني .
 إني أسمع صوته في ذلك ليلة ، داكناً ، يعلو ويخفت ،
 ليس فيه حزن ولا ندم ، إن كان في الصوت شيء فقد كانت
 فيه رنة فرح . « وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم :
 أحبك . فجاوب صوتها هتاف ضعيف في أعماق وعيي
 بدعوني أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ،
 وبعد ذلك ألقط أنفاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت
 برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كمخار يصعد من بحيرة
 مالحة وسط الصحراء . حين خطا زوجها إلى منصة الشهادة
 في المحكمة ، تعلقت به الأبصار . كان رحلاً ببيل الملامح
 والخصو ، رأسه الأشيب يكلله الوقار ، وتجلس على منته مهابة
 لا مرأ فيها . كان رحلاً لو وضعت معه على ميزان ، فإن كفته
 ترحح ككفي أضعاف أضعاف . وكان شامد دفاع لا اتهام .
 قال في الصمت الذي خيم على المحكمة . الانصاف يحتم علي أن
 أقول أن إيزابيلاً روجني كانت تمم بأنها مريضة بالسرطان .
 كانت في الآونة الأخيرة ، قبل موتها ، تعاني من حالات
 انقباض حادة . قبل موتها بأيام اعترفت لي بعلاقتها بهم .
 قالت انها أحسنه وانه لا حيلة لها . كانت طول حياتها معي
 مثال الزوجة الوفية المخلصة . وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس
 بأي مرارة في نفسي ، لا نحوها ولا نحو المتهم . اني فقط
 أحس بحزن عميق لفقدما .

لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وأنا أحس بالمرارة
 والحقد ، فبعد هؤلاء الصحاب جميعاً ، توج حياته بضحية

أخبرني ، حسنه بنت محمود ، المرأة الوحيدة التي أحببتها ،
قتلت ود الرئيس المسكين وقتلت نفسها من أجل مصطفى
سميد . وقطعت ... باللبشاعة . والتقطت صورة في إطار
من الجلد . هذه آن عند بلائك ، بالرغم من انها تلبس عباءة
عربية وعقالا ، والإهداء أسفل الصورة بخط عربي مهتر :
« من حاربتك سوسن » وحده حي يتفجر صحة لا تكاد الصورة
تحتويه . في كل خد غمازان ، والشفتان ممتلئتان منفرحتان ، والعينان
تتوافدان بحب الاستطلاع . واضح كل هذا في الصورة على تقادم
العهد بها . « كانت عكسي تحن إلى مذاخات استوائية ،
وشمس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينيها رمزا
لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع .
كانت تلك شقة في هامستد تطل على هامستد حيث تجيئها من
أكسفورد آخر الأسبوع . كنا نقضي ليلة السبت عندي وليلة
الأحد عندها . وأحيانا تمكث الاثنتين وأحيانا الأسبوع كله .
ثم أخذت تتغيب عن الجامعة شهرا وشهرين حتى فصلت .
كانت تدفن وجهها تحت إبطي وتستنشقني كأنها تستنشق
دخاناً مخدراً . وجهها يتقلص بالذلة . تقول كأنها تردد طقوساً
في معبد : « أحب عرقك . أريد رائحتك كاملة . رائحة
الأوراق المتعفنة في عابات افريقيا . رائحة المنجعة والمادي
والتوابل الإستوائية . رائحة الأمطار في صحارى بلاد
العرب » . كانت صيداً سهلاً . قابلتها أثر محاضرة أقيمتها في

أكسفورد عن أبي نواس . قلت لهم أن عمر الحيام لا يسوي
 شيئاً إلى جانب أبي نواس ، وقرأت لهم من شعر أبي النواس
 في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، راعماً لهم أن تلك هي
 الطريقة التي كان شعر العربي يلقى بها في العصر العباسي .
 وقلت في المحاضرة أن أبو نواس كان متصوفاً ، وإنه جعل من
 الخمر رمزاً حمل جميع أشواقه الروحية ، وإن توفقه إلى الخمر
 في شعره كان في الواقع توفيقاً إلى لغناء في ذات الله . كلام
 مطلق لا أساس له من الصحة ، لكنني كنت ملهماً في تلك
 الليلة ، أحس بالأكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية .
 وكنت أحس بالشوة تسري مني إلى الجمهور ، فأمضي في
 الكذب . وبعد المحاضرة التفتوا حولي . موظفون عملوا في
 الشرق ، ونساء طاعنات في السن مات أرواحهن في مصر
 ولعراق والسودان ، ورجال حاربوا مع كثر ولذي ،
 ومستشرقون ، وموظفون في وزارة المستعمرات ، وموظفون
 في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . وفجأة رأيت
 فتاة في الثامنة أو التاسعة عشرة تشب نحوي وثباً
 مخترقة الصفوف . وصوقتني بذراعيها وقبلني وقالت
 باللغة العربية : أنت جميل تحمل عن الوصف . وأنا
 أحبك جداً يحل عن الوصف . قلت لها بعاطفة أخافتني حبتها :
 وأخيراً وجدت لك يا سوسن . إنني أبحث عنك في كل مكان ،
 وخفت ألا أجدك أبداً . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفه لا تقل

عن عاطفتي حدة : كيف أسي دارنا في لكرخ في بغداد على
ضفة نهر دجلة أيام المأمون ؟ أنا أيضاً تقفيت أثرك عبر القرون
ولكنني كنت واثقة اذا سننقي . وهائتذا يا حبيبي مصطفى ،
لم تتغير منذ افترقنا . كائنني وهي على مسرح وحولنا ممثلون
يؤدون أدواراً صغيرة . أنا بطل وهي بطة . أطفئت الأنوار
وساد الظلام حولنا وبقينا أنا وهي وحدنا وسط المسرح
بنصب عليا ضوء وحيد . ورغم إدراكي انني أكذب ، فقد
كنت أحسن انني بطريقة ما أعني ما أقول ، وانها هي أيضاً
رغم كذبتها فان ما قلته هو الحقيقة . كانت تلك لحظة من
لحظات النشوة لنادرة التي أبيع بها عمري كله . لحظة تتحول
فيها الأكاذيب أمام عينك إلى حقائق ، ويصير التاريخ قواداً ،
ويتحول المهرج إلى سلطان . وفي غمرة الحلم ذاك حملتني
بسيارتها إلى لندن . كانت تسوق بسرعة رهيبية ، وبين الحين
والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ : ما
أسعدني إذ وجدتك أخيراً . انني سعيدة سعادة لومت في
هذه اللحظة فاني لـن أبالي . وكنت نقف على الحافات في
الطريق ، ونشرب خمر التفاح أحياناً والبيرة أحياناً ، والنبيذ
الأحمر والنبيذ لأبيض ، وأحياناً نشرب الوسكي . ومع كل
كأس أقرأها من شعر أبي نواس قرأت لها :

أما يسرك أن الأرض زهراء والخمر ممكنة شمطاء عذراء

ما في قعودك عذر عن معتقة كالليل ولدها والأم خضراء
دور فإن جناح الكرح موقفة له ثلثتها يد للحرب عسراء

وقرأت لها :

وكأس كمصباح لسماء ضربتها على قبيلة أو موعد للقاء
أنت دونها الأيام حتى كأنها تساقط نور من فتوق سماء

وقرأت لها :

إذا عبأ أبو الهيجاء لهيجاء فرسانا
رسارت راية الموت أمام الشيخ اعلنا
وثبتت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس أبدينا ونبل القوس سوسانا
فعدت حربنا انسا وعدنا نحن خلانا
إذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
لقبيان يرون القتل في اللذة قرنا
ومنشا حربنا ساق ميا خمرنا فستانا
يحس الكأمن كي تلحق خرانا بأولانا
تري هناك مصروعا وذا بنجر سكرانا
فهدي الحرب لا حرب تغم الناس عدوانا
بها يقتلهم ثم بها ينشر قتلانا

نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب ، تسديني
لذات الأكاذيب العذبة ، ونسج لها خيوطا دقيقة مريضة من
الأوهام . تقول لي انها ترى في عيني لمح الشراب في الصحاري
حارة . وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في
الغابات ، وأقول لها انني أرى في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة
انني ليس لها سواحل . وفي لندن أدخلتها بيتي ، وكر
الأكاذيب الفادحة ، التي بديتها عن عمد ، اكذوبة اكذوبة .
صندل والتند وريش النعام ونماثيل العاج والأبنوس والصور
والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل ، وقوارب على
صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تغرب على
جبال البحر الأحمر ، وقوافل من الجمال تحب السير على كثران
ارمل على حدود اليمن ، أشجار التبدي في كردفان ، وقتيات
عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك ، حقول الموز
والبن في خط الإستواء ، والمعابد القديمة في منطقة النوبة ،
الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي الممق
الساجيد العجمية والسنائر الوردية ، والمرايا الكبيرة على
الحدران ، والأضواء الملونة في الأركان . ركمت وقبلت
قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وأنا سوسن
جارتك . هكذا كل واحد منا اختار دوره في صمت ، هي
تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد . حضرت الحمام ثم
غسلتني بالماء الذي صبت فيه ماء الورد . أوفدت عيادان

اسد ، وأوقدت الصندل في محمر النحاس المغربي المعلق في المدخل . لبست عباءة وعقالاً وتددت أنا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقى ذرقتي وكففي . قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فأجابتنى بصوت خفيض : سمعاً وطاعة يا مولاي . في غمرة الوهم والسكر والجنون أخذتها فقبلت لأن لدي قد كان بيننا كان منذ ألف عام . وجدرها في شقتها في هامستد مية انتحراً بالفاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك ،

وضعت صورة آن ممد في مكانها إلى يار صورة مصطفى سعيد وهو يقف بين مسز روبنسن وزوجها . الاهداء في أسفل الصورة : « الى موزي العزيز - القاهرة ١٧/٤/١٩١٣ » يبدو انها كانت تدلله بهذا الاسم ، فهي في رسالتها أيضاً تشير إليه باسم « موزي » . مصطفى سعيد يبدو مجرد طفل ، ولكن وجهه عابس في الصورة . مسز روبنسن تقف إلى يساره وتضع ذراعها حول كتفه وزوجها يطوقها الاثنان بذراعه وهو وزوجته ينتسبان ابتسامة طبيعية سعيدة . وحماهما وجهها شابين لم يصلا الثلاثين . رغم كل شيء فانت حب مسز روبنسن له لم يتزعزع . انها حضرت الهاكمة من أولها إلى آخرها ، وسمعت كل شيء ، ومع ذلك فانها تقول في رسالتها إلي : « لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى امتناني لأنك كتبت لي عن موزي العزيز . لقد كان موزي أعز

شخص بالنسبة لي ولزوجي . مسكين موزي . انه كان طفلاً معذباً . ولكنه أدخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها . بعد تلك المسألة المؤلمة وتركه لندن ، انقطعت أخباره عني ، وقد حاولت جهدي أن أعيد الاتصال به ولكنني لم أفعل . مسكين موزي ، ولكن ما يخفف عني قليلاً ألم فقدته أن أعلم أنه قضى السنوات الأخيرة من حياته سعيداً بينكم وأنه تزوج زوجة طيبة وأنجب ولدين . بلغ حبي لمز سعيد . أنه تستطيع أن تعتبرني أما . وإذا كان ثمة عمل أستطيع أن أؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها . لا تتردد في لكتبة إلي . وكم أكون سعيدة لو أنهم جميعاً جاءوا وقضوا معي عطلة الصيف القادم . انني أعيش هنا وحيدة في آيل أف وايت . وقد سافرت إلى القاهرة في يناير الماضي ومرت قبر زوجي . كان ركي يحب القاهرة حباً عظيماً وقد شاء القدر أن يدفن في المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم .

« انني أشعل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا - ركي وموري وأنا - كانا رجلين عظيمين ، كل بطريقته . كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين . كان سعيداً بمعنى الكلمة ، تفيض السعادة منه إلى كل من يتصل به . وكان لموري عطر عبقرى ، ولكنه كان متهوراً . كان غير قادر على تقبل السعادة أو عطاها ، إلا لمن أحبهم

وأحبوه حباً حقيقياً مثلي ومثل ركي . وأنا أحسن أن
الحب والواجب يحتم علي أن أعرف الناس بقصة هذين
الرجلين العظيمين سيكون الكتاب في الواقع عن ركي
وموزي ، فأنا لم أفعل شيئاً يستحق الذكر . سأكتب عن
الخدمات الجليلة التي أداها ركي للثقافة العربية ،
مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها
والإشراف على طبعتها . وسأكتب عن الدور العظيم الذي لعبه
موزي في لفت الأنظار هذا إلى البؤس الذي يعيش فيه أبناء
قومه تحت وصايتنا كمنعمين . وسأكتب لتفصيل عن
المحاكمة وأزبل ما علق باسمه من غبار . انني أكون شاكراً
إذا أرسلت لي أي شيء خلفه موزي قد يعني علي كتابة
هذا الكتاب . ولعل موزي أخبرك انه جعلني وصية علي
شئونه في لندن . وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبع
لبعض كتبه ورجة بعضها سأحولها فوراً حين تخبرني بعنوان
الملك الذي تريدني أن أحولها له وبهذه المناسبة سمح لي
أن أشكرك شكراً عظيماً علي الإشراف علي عائلة موزي
العزیز . أرجو أن تراسلني بانتظام وتكتب لي عن أخبارهم
بالتفصيل وأن ترسل لي صورتهم في رسالتك القادمة .

« مخلصتك اليزابيث »

وضعت الرسالة في جيبى وجلست على الكرسي إلى يمين

المدفأة . وقع بصري على عدد من صحيفة « التايمز » بتاريخ
 الاثنين ٢٦ - ٩ - ١٩٢٧ . المواليد ، الزيجات ، الوفيات .
 وقع مراسم الزواج القسيس سامسن ماجستير في الآداب .
 تقام مراسم الحنازة في كنيسة سنتي الساعة الثانية بعد الظهر ،
 الأربعاء . الرسائل الشخصية . أيتها المحبوبة دائماً ، إلى متى
 نطسل مفترقين ؟ - القلب لعزير . مستعمرة كينيا -
 مستر ... مساح فانوي - يعود إلى نيروبي في الخامس من
 أكتوبر ، حتى ذلك التاريخ أية مراسلات متعلق بتقارير عن
 عقارات في المستعمرة ، يجب أن ترسل بواسطة ... اعلانات
 عن دروس في ركوب الخيل . قطط سيامية زرقاء للبيع .
 فتاة (١٧ سنة) مهيبة ، من عائلة محترمة ، تبحث عن عمل .
 سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وصيفة في
 الخارج . أخمار الرياضة . وست هل يهزم بير هل .
 وست هام يفوز . جين ثني يغلب جاك دمبسي . رسالة من
 ظفر الله خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع
 بين المسلمين والهندوك في البنجاب . رسالة تقول : « الجاز
 موسيقى مرحة في عالم مظلم » . فيلان وصلا من رانغوت
 أمس ، وسارا على الأقدام من مرسي تلبيري إلى حديقة الحيوان .
 مربى أبقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه . رجل
 سرق أربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات .
 الأخبار الامبراطورية والخارجية . عرض جديد من موسكو

للتدبير الدين الروسي لفرنسا . فيضانات في سويسرا .
 الدسكفري سفينة كابتن سكوت عادت من البحار الجنوبية .
 هر سترسمان ألقى خطاباً عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت .
 وأيضاً أدلى هر سترسمان بتصريح لصحيفة « ماثان » أيد فيه
 خطاب لرئيس فون هندبرغ في تانبرج الذي رفض فيه أن
 ألمانيا مسئولة عن نشوب الحرب . المقالة الافتتاحية عن
 معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كلينز بالنياية عن بريطانيا
 العظمى والأمير فيصل عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه
 ملك الحجاز ونجد وعمياتهما . الحالة الجوية في اسكلترا وويلز ،
 الرياح في الغالب بين الغربي والشمالي الغربي ، قوية أحياناً في
 الأماكن المكشوفة ، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع
 فترات من العوصف الممطرة وأحياناً أمطار محلية .

انها الصحيفة الوحيدة فيما يبدو . هل وجودها هنا له أي
 مدلول ؟ أم انها محض الصدفة ؟ وفتحت كراسة وقرأت على
 الصفحة الأولى . « قصة حياتي - بقلم مصطفى سعيد » .
 وفي الصفحة التالية الإهداء : « إلى الذين يرون بعين واحدة
 ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء اما سوداء أو بيضاء ،
 اما شرقية أو غربية » . رقلت بقية الصفحات فلم أجد شيئاً ،
 ولا سطرأ واحداً ولا كلمة واحدة . هل هذا أيضاً له
 مدلول أم انه صدفة محضة ؟ وفتحت ملفاً فوجدت أوراقاً
 كثيرة وسكتشات ورسومات . كان إذن يعالج لرسم

والكتابة الرسوم جيدة تم عن موهبة . رسوم بالألوان
لناظر في الريف الانكليزي تتكرر فيها أشجار البلوط
والغدران والاور . وسكنشات بالقلم الرصاص لناظر واشخاص
من قريتنا . بالرغم من كل شيء لا يعني إلا أن أعترف
بهارته الفائقة . بكري وبحبوب وجدي وود الريس وحسنه
وعمي عبد الكريم وغيرهم . وجوههم تطالعني بتعبيرات عميقة
طالما أحسستها ولكنني لم أكن قادراً على تحديدها .
وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤية وبمطف يقرب من
الحب . ووجه ود الريس يتردد أكثر من الباقين . ثمانية رسوم
لود الريس في تعابير مختلفة . لماذا اهتم بود الريس كل هذا
الاهتمام ؟

ونظرت في قصاصات الورق وقرأت : « نعلم الناس لنفتح
أذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة . ولكننا لا نستطيع أن
نتنبأ بالنتيجة - الحرية . نحرر العقول من الخرافات .
نعطي الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف فيه كما يشاء » .
« تركت لندن وقد بدأت أوربا تحشد جيوشها مرة أخرى
لعنف أكثر ضراوة » . « لم تكن كراهية . كان حباً عجز
أن يعبر عن نفسه . أحببتها بطريقة معوجة . وهي أيضاً » .
« أسف البيوت بللها رذاذ المطر . البقر والضأن في الحقول
وكأنها حصوات بيضاء وسوداء . البلب الخفيف في شهر يونيو .
اسمحي لي يا سيدتي . هذه الرحلات بالقطار مملة . كيف

حالك ؟ من برمنغهام . إلى لندن . كيف تصف المناظر ؟
شجر وحشائش . أكوام نقش اليابس وسط الحقول .
الأشجار والحشائش هي هي في كل مكان . كتاب لنفايو
مارش . ترددت . لم تقل لا أو نعم . . هل كان يصف
حوادث حقيقية أم انه كان يعالج قصة ؟ « انني يا مولاي
يجب أن أعترض على لجوء الاتهام إلى حيلة منطقية مكشوفة .
ذلك انه يريد أن يؤكد مسؤولية المتهم في حوادث لم يكن
مسئولاً عنها ، بناء على عمل حدث فعلاً ، ثم يعود ويؤكد
افتراضه فيما حدث فعلاً بناء على الافتراضات السابقة .
ان المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسؤولاً
عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر
البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة . » من ولد الخير
ولد له فراخاً تطير بالسرور . ومن ولد الشر أنبت له شجراً
أشواكه الحسرة وثمره الندم . فرحم الله امرأاً أغضى عن
الأخطاء واستمتع بالظاهر . »

ووجدت قصيدة بخط يده . إذن كان يعالج الشعر أيضاً ،
وواضح من كثرة ما شطب فيها وبديل وغير في كلماتها انه هو
الآخر كان يحس برهبة أمام الفن . ها هي ذي :

عربدت في الصدر آهات الحزين
ودموع القلب فاضت من تباريح السنين
ورياح عصفت بالحب واحقد الدفين

وبقايا صلوات ضمها الصمت العميق
هبتات ودعاء وفواح وزعيق
وغبار ودخان غم للساري الطريق
ونفوس مطمئنت وأخرى هلعة
وجباه صاغرات وأخرى . . .

ولا بد ان مصطفى سعيد قضى ساعات طويلة يبحث عن
الكلمة التي يستقيم بها الوزن . استهوئني المعضلة ففكرت بضع
دقائق . ولم يطل تفكيري . انها قصيدة ركيكة على اي حال
قدغة على الطاق والمقارنت . ليس فيها احساس صادق ولا
انفعال حقيقي . وهذا البيت ليس أسوأ من بقية الابيات .
شطبت البيت الاخير وكتبت محله :

(وخذود صاغرات وجباه خاشعة) .

ومضيت في تقليب الاوراق فوجدت ارقاماً رقصاصات
ورق فيها عبارات مثل : « ثلاثة براميل زيت » ، « تناقش
اللجنة موضوع تقوية قاعدة المكمة » ، « فائض الاسمنت يمكن
بيعه فوراً » . ثم وجدت هذه الفقرة : « وقد كان حتما ان
يصطدم طالعي بطالما وان اقضي في السجن اعواماً واضرب
في الارض اعواماً ، اطارد خيالها ويطاردني . وذلك هو
الاحساس بأنني في لحظة خارج حدود الزمن قد ضاجعت الهة
الموت واطللت من كوة عينيها على الجحيم . انه شعور لا يمكن

لإنسان أن يتصوره . وقد ظل مذاق تلك الليلة في فمي يمنعني
من أي مذاق سواء .

سنت قراءة الاوراق . لا شك أن ثمة اوراقاً كثيرة
اخرى دفينة في هذه الغرفة ، كجزء في لغز حسابي ، يريد
مصطفى سعيد مني أن أكتشفها وأضعها جنباً الى جنب ،
وأخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه . انه يريد أن
يكتشف كآثر تاريخي له قيمته . لا شك في ذلك . وأنا أعلم
الآن انه اختارني أنا لهذا الدور . لم تكن صدفة انه أثار حب
الاستطلاع عندي ، ثم قص علي قصة حياته غير كاملة لكي
اكتشف أنا بقية القصة . لم تكن صدفة أنه ترك لي رسالة
مختومة بالشمع الاحمر ، أمعانا منه في شحذ خيالي ، وانه
جعلني وصياً على ولديه ليأمرني الزاماً لا فكاًك منه ، وانه
ترك لي مفتاح متحف الشمع هذا . لا حد لافانيتها وغروره ،
فهو رغم كل شيء يريد أن يخلده التاريخ . انما أنا لا أملك
متسعاً من الوقت للمضي في هذه المهزلة . يجب أن انهي هذه
المهزلة قبل طلوع الفجر ، والساعة الآن جاوزت الثانية صباحاً
عند طلوع الفجر ستأكل السنة البار كل هذه الاكاذيب .

هبت واقفاً ، ورفعت ضوء الشموع على اللوحة الزيتية
على رف المدفأة . كل شيء في الغرفة منظم مرتب موضوع في
مكانه . الا صورة جين مورس . كأنه لم يدر ماذا يفعل بها .
كل النساء الأخريات احتفظ بصورهن الفوتوغرافية ، ولكن

جين مورس هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير . نظرت الى اللوحة باعجاب . وجه مستطيل لامرأة واسمه العيذين حاجباها ينمقدان فوقها . الاف يميل الى الكبر والفم يميل الى الاتساع والتعبير على الوجه شيء يصعب وصفه في كلمات . تعبير رهيب ، محير . الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تمض أسنانها والفك مائل الى الامام بكبرياء . هل التعبير في العيذين غضب أم ابتسام ؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله . هذه اذن هي العنقاء التي افترست الغول ؟ كان صوته في تلك الليلة جريحا حزيناً نادماً . ألانه فقدما ؟ أم لانها جرعتة المهانات ؟ .

« كنت اجدها في كل حفل أذهب اليه . كأنها تتعمد أن تكون حيث أكون لتهينني . أردت أن أراقصها فقالت لي : لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم . صفعتها على خدها فركلتني بساقها وعضتني في ذراعي بأسنان كأنها أسنان لبرة . لم تكن تعمل عملاً ولا اعلم كيف كنت تعيش . أهلها من ليدز ، لم اقابلهم حتى بعد زواجي بها . كان ابوها تاجراً لا ادري في اية بضاعة ، وكان لها ، حسب قولها ، خمسة أخوة وكانت هي البنت الوحيدة . كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء . تعود الى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها واناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل . ولا استبعد انها كانت عديمة الأهل ، كأنها شهرزاد متسولة .

ولكنها كانت مفرطة في الذكاء ومفرطة في الطرف حين
تشاء ، يحيط بها حيث تكون ليف من المعجدين يرفون حولها
كادباب . وكنت أحس احساساً دخلياً انها رغم تظاهرها
بكرامتي ، كانت مهتمة بأمرى ، حين يجتمعني واياها مجلس
ترافيني بطرف عينها ، وتخصي جميع حركاتي وسكناتي ، واذا
رأت مني اهتماماً بفتاة ما سارعت من اساءتها وانقوسة عليها
كنت ماجنة بالقول والفعل ، لا تتورع عن فعل اي شيء ،
تسرق وتكذب وتفتن ، ولكنني رغم ارادتي أحببتها ولم
أعد استطيع ان اسيطر على مجرى الاحداث . كانت حين
اتجنبها تغريني وحين اطاردها تهرب مني . كسحت مرة جراح
نفسي وتجنبتها أسبوعين . اخذت ابتعد عن الاماكن التي
ترادها واذا دعيت الى حفل اناكد انها لن تكون موجودة
فيه . ولكنها وجدت طريقها الى بيتي فجاءتني آخر ليلة
سبت وآن مند معي . شمت آن همد شائم مقذعة فتهرتها
وضربتها فلم ترتدع . خرجت آن همد بكية وظلت واقفة
امامي كشيطان رجيم ، في عينيها نكد وداء أثار أشواقاً
بعيدة في قلبي . لم أكلمها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابها
ووقفت امامي عارية . بدران الجحيم كلها تأججت في صدري
كان لا بد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي .
تقدمت نحوها مرتعش الاوصال ، فأشارت الى زهرية ثمينة من
الموجودة على الرف . قالت : تعطيني هذه وتأخذني . لو طلبت

مني حياتي في تلك اللحظة ثمأ افايضتها أياها ، أشرت برأسي
 موافقاً . أخذت الزهرية وهشمتها على الارض واخذت ندوس
 الشطايا بقدميها حتى حولتها الى فتات . أشارت الى مخطوط
 عربي بادر على المنضدة . قالت : تعطيني هذا أيضاً . حلقي
 جاف . انا ظمآن يكاد يقتلي الضمأ . لا بد من جرعة ماء
 مثلجة . اشرت برأسي موافقاً . اخذت المخطوط القديم النادر
 ومزقته وملأت فيها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها . كأنها
 مضغت كبدي ، ولكنني لا بلي . أشارت الى مصلاة من
 حرير أصفهان أهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من
 القاهرة . أثن شيء عندي وأعز هدية على قلبي . قالت :
 تعطيني هذه أيضاً ثم تأخذني . ترددت برهة ولكنني نظرت
 اليها منتصبه متحفزة أمامي ، عيناه تلمعان ببريق الخطر
 وشفتها مثل فاكهة محرمة لا بد من أكلها . وهزرت رأسي
 موافقاً ، فأخذت لمصلاة ورمتها في بار المدفأة ووقفت تنظر
 متلذذة الى النار ثلثتها فانعكست السنة النار على وجهها .
 هذه المرأة هي طلبتني ومألاحقها حتى الجحيم . مشيت اليها
 ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة
 أحسست بركلة عنيفة بركبتيها بين فخذي . ولما افقت من
 غيبوبي وجدتني قد اختفت .

« لبثت اطاردها ثلاثة أعوم ، قوافلي ظمأى والسراب
 يلح امامي في متاهة الشوق . وذات يوم قالت لي : انت نور

متوحش لا يفتر من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ومن
جربي أمامك . تزوجني . تزوجته في مكتب التسجيل في
فولام . لم يحضر العقد غير صديقة لها وصديق لي . حين قالت
امام المسجل : انا جين ونفرد مورس أقبل هذا الرجل مصطفى
سعيد عثمان زوجي الشرعي في السراء والضراء في الفقر والغنى
في الصحة والمرض - فجأة أجهشت بالبكاء وأخذت تبكي
بحرقه . دهشت انا لهذه العاطفة منها وكف المسجل عن
اجراء المراسم وقال لها بعطف : هوني عليك . أنا أقدر
شعورك . ما هي الالطحات وينتهي كل شيء . وظلت بعد
ذلك تنهه بالبكاء ، ولما انتهى العقد أجهشت بالبكاء مرة
اخرى . وجاء المسجل وربت على كتفها ثم صافحتني قائلاً :
زوجتك تبكي من شدة السعادة . انني رأيت نساء كثيرات
يبكين في زواجهن ولكنني لم أر بكاء بهذه الحرقه .
يبدو انها تحبك حباً عظيماً ، اعتن بها . أنا متأكد ستكونان
سعيدين . وظلت تبكي لي ان خرجنا من مكتب التسجيل .
وفجأة انقلب بكاؤها الى ضحك قالت وهي تقهقه بالضحك :
يا لها من مهزلة .

(وقضينا بقية اليوم في سكر . لا حفل ولا مدعويين ،
أنا وهي والخمر . ولما ضمنا الفراش ليلاً أردتهما فأدارت لي
ظهرها وقالت : ليس الآن . أنا متعبة . وظلت شهرين لا
تدعني أفرها ، كل ليلة تقول : أنا متعبة . أو تقول : أنا

مريضة . لم اعد احتمل أكثر ، احتملت . وقفت فوقها ذات
 ليلة واسكين في يدي . قلت لها سأقتلك . نظرت الى
 السكين نظرة بدت لي كأن فيها لهفة ، وقلت : ها هو
 صدري مكشوف امامك اغرس السكين في صدري . نظرت
 الى جسمي لعاري في متناول يدي ولا أدله . جلست على
 حافة سرير وبكست رأسي بذلة . وضعت يديها على خدي
 وقالت بلمحة لم تخل من رقة : انت يا حلوي لست من طينة
 لرحال الدين يقتلون . أحست بذلة والوحدة والضياح .
 وفجأة تذكرت أمي . رأيت وجهي وانحأ في بحيلتي وسمعتها
 تقول لي : انها حياتك وانت حر فيها . وتذكرت نأ وفاة
 امي حين وصلني قبل تسعة اشهر ، وحدوني سكرات في
 أحضان امرأة . لا أذكر الآن أية امرأة كانت . ولكنني
 تذكرت بوضوح أنني لم أشعر بأي حزن ، كأن الأمر لا يعني
 في كثير ولا قليل . تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي .
 بكيت حتى ظننت اني لن أكف عن البكاء أبداً . وأحسست
 حين تطوقني بذرعيها وتقول كلاماً لم أميزه ولكن صوتها
 وقع على أذني وقعاً منفراً اقشعر له بدني . دفعتها عني بعنف
 وصرخت فيها : أنا أكرهك . أقسم اني سأقتلك يوماً ما .
 وفي عمرة حزني لم يغب عني التعبير في عينيها . تأملت عيناها
 ونظرت إلي نظرة غريبة هل هي دهشة ؟ هل هي خوف ؟

هل هي رغبة ؟ ثم قالت بصوت فيه مناعات مصطنعة : أنا
أيضاً أكرهك حق الموت .

ولكن لم تكن لي حيلة . كنت صياداً فأصبحت
فريسة . وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب
هذابي . بعد ذلك الحادث بأحد عشر يوماً تماماً ، أذكرها
لأنني تجرعت غصصها كما تجرع العصائم غصص شهر صوم
قائظ ، كنا في حديقة رثيمند قبيل الغروب . لم تكن
الحديقة خالية تماماً من الناس . كنا نسمع الأصوات ونرى
أشخاصاً يتحركون في ضوء الشفق . لم نتحدث إلا قليلاً ولم
فتبادل عبارات حب ولا غزل . دون سبب وضعت ذراعيها
حول عنقي وقبلتني قبلة طويلة . أحسست بصدرها يضغط
على صدري . وضعت ذراعي حول خصرها وجذبتهما إلي فتأومت
آهات مزقت نياط قلبي وأنستني كل شيء . لم أعد أذكر شيئاً .
لم أعد أرى أو أعي إلا هذه المصيبة الفادحة التي رمانيها القدر .
هذه المرأة هي قدرتي وفيها هلاكي ، ولكن الدنيا كلها لا
تساوي عندي حبة خردل في سبيلها . أنا الغاري الذي جاء
من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود
منه ناهياً . أنا السلاح القرصان وجين مورس هي ساحل
الهلاك . ولكنني لا أبالي . أخذتها هنالك في العراء ، لا يعني
إن كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من
الذشوة تساوي عندي العمر كله .

وقد كانت لحظات الفتوة صعبة بالفعل ، وبقية الوقت
 وتضيقه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة . كانت
 الحرب تنتهي بهزيع دائما أصغرها تصفيعني وتنشأ أعزها .
 في وجهي ويتفجر في كبدها بركان من العنف فتكسر كل ما
 له يدما من أوان وتمزق الكتب والأوراق . كان هذا الخطر
 سلاح حده . كل معركة تنتهي بنزاع كتاب مهم أو حرق
 بحث أصعب فيه أسبوع كاملة . وأحيانا يستبدني الغضب
 حتى أبلغ حدّة جنون ولقتل ، فأشدّد قبضتي على عنقهم
 فتكسر فجأة وتنظر إلي تلك النظرة المهمة ، الحليظ من
 الدهشة وحول وارغبة . لو أنني ضغطت قبدي أثمة أكثر
 صفطت لودعت حداً للحرب . وكانت الحرب تثقل معنينا
 إلى الخارج . ونحن في حانة صرخت فجأة : ان العاهية
 عازلي . وتب عن رحيل وأخذت ثوبه وأخذت ثوبتي
 وسمعنا عينا منس ، وفجأة سمعنا تفقده بالصحك ور .
 ظهر في ذلك أحد الرجال الذين حاربوا في صولون .
 يؤمنني أن أقول لك أن هذه امرأة إذا كانت زوجتك قاتلك
 متزوج . مؤمن . هذا الرجل لم يكلم بكلمة . بعد ذلك
 هذه المرأة تحب مطر الصيف . وتحول عضي إليها ، فذهبت
 أيتها وهي مازال تفقه وصفعتها وأشلت أظفارها في وجهي .
 ولم أستطع حرارتها إلى البيت إلا بعد مجهود وألم عظيمين .

« وكان يحلو لها أن تغارل كل من هب ودب حين تخرج
 معها . كانت تغارل غرسونات المطاعم وسواقى البصات
 وعابري السبيل وكان بعضهم ينشجع ويستجيب ويرد بعضهم
 بعبارات بذيئة فأتشاجر مع الناس وأضربها وتضرني في
 عرض الطريق . وما أكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني
 بها . لماذا لا أتركها وأنجو بنفسى ؟ ولكنني كنت أعلم أن
 لا حيلة لي وإن لا مفر من وقوع المأساة . وكنت أعلم أنها
 تخونني . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة . وجدت مرة
 مندبل رجل ، لم يكن مندبلي . سألتها فقالت : انه مندبك .
 قلت لها : هذا المندبل ليس مندبلي ، قالت : هبه ليس
 مندبك . ماذا أنت فاعل ؟ ومرة وجدت علبة سجانر ومرة
 وجدت قلم حبر ، قلت لها : انت تخونينني . قالت : افرض
 انني اخونك ، صرخت فيها : اقسم انني سأقتلك . ابتسمت
 ساخرة وقالت : انت فقط تقول هذا . ما الذي يمنعك من
 قتلي ؟ ماذا تنتظر ؟ لعلك تنتظر حتى تجدد رجلاً فوقى ..
 وحتى حينئذ لا اظنك تفعل شيئاً . متجلس على السرير
 وثبكي .

« ذات مساء داكن في شهر فبراير . درجة الحرارة عشر
 درجات تحت الصفر . المساء مثل الصباح ، مثل الليل داكن
 مكفهر ، لم تشرق الشمس طيلة اثنين وعشرين يوماً . المدينة
 كلها حقل جليد ، الحليد في الشارع في الحدائق عندمداخل

البيوت . الماء تجمد في انابيبه والنفس يخرج بخاراً من الافواه .
 الاشجار عالية تنوء اغصانها تحت وطأة الثلج . وانا دمي يغلي
 وفي رأسي حمى . في ليلة مثل هذه تحدث الاعمال الجسيمة .
 هذه ليلة الحساب . مشيت من المحطة الى الدار احمل المعطف
 على ساعدي ، جسمي ساخن والعرق يتصبب من جبهتي . كان
 الجليد يقرقع تحت حذائي وما أطلب البرد . اين البرد ؟
 وجدتها غارية مستلقية على السرير ، فقذاها ببيضاوان
 مفتوحتان ، ابتسامتها مفعمة وعلى وجهها شيء مثل الحزن ،
 في حالة تأهب عظيم للاخذ والمصاء . حن قلبي اليها اول ما
 رايتها ، واحسست بالدفع الشيطاني تحت الحجاب الحاجز .
 حين احس اعلم انني مسيطر على زمام الموقف . اين كان هذا
 الدفع كل هذه الاعوام ؟ قلت لها بصوت واثق كدت انساء
 من طول ما فقدته : هل كان معك أحد ؟ أجابتنني بصوت
 أثر فيه وقع صوتي : لم يكن معي أحد . هذه الليلة لك انت
 وحدك . انا انتظرك منذ وقت طويل .

« احسست . انها تصدفتني لأول مرة . هذه الليلة ليلة
 الصدق والمأساة . اخرجت السكين من غمده . جلست على
 حافة السرير وقتاً انظر اليها . كنت ارى وقع نظراتها حياً
 ملوفاً على رجليها . نظرت في عينيها فنظرت في عيني
 وقامكت نظراتنا واشتبكت ، فكأننا فلكان في السماء
 اشتبكنا في ساعة نحس . وطففت نظراتي عليها فحولت وجهها

عبي ، ولكن الاثر ظهر في وسطها فحرحته يمنة ويسرة ورفعته قليلا عن السرير ثم استقرت به ورمت ذراعيها في تراح . وعادت تنظر الى بطرت لي صدرها ، فنظرت هي ايضا الى حيث وقع بصري على صدرها كأنها أصبحت مملوكة الارادة تتحرك حسب مشيقي . بطرت الى بطنها فتابعني وبدأ الم خفيف على وجهها .. كنت ابطيء فنبطيء وأعجل فتمجمل . أطلت النظر الى فخذيها البيضاء الممتلحتين ، ادلكهما بعيني وبنزلق نظري على السطح الناعم الاملس الى ان يستقر هناك في مستودع الاسرار ، حيث يولد الخير ولشر . ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكسران كأنها أصبحت غير قادرة على السيطرة عليها . رفعت الخنجر ببطء فتابعته حده بعينيها . واتسعت حدقتا العينين فجأة وضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع برق . لبثت تنظر الى حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق . ثم امسكت اخنجر وقبلته بلهفة . وفجأة اغمضت عينيها ونمطت في سرير رفعة وسطها قليلا فاتحة فخذيها كثر . وتأوهت وقالت : ارجوك يا حلوي هيا . انا مستعدة الآن . لم استجب لندائها فتأوهت آهة اكثر الما . وانتظرت . بكك . خرج صوتها خافتا لا يكاد يسمع : أرجوك يا حبيبي .

« ها هي ذي سفني يا حبيبي تبهر نحو شواطئ الهلاك . ملت عليها وقبلتها . وضمت حد الخنجر بين نهديها ، وشبكت

هي . جليها حول طهري . ضغطت ببطء . ببطء . منحت
عينها . ي بشوة في هذه الميون . وبدت لي اجمل من كل
شيء في الوجود . قالت بآلم : يا حبيبي . ضمنت بك ان
تفعل هذا ابداً . كدت اياأس منك . وضغطت الخنجر
بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين . واحسست
بدمها الحار يتفجر من صدرها . واحذت ادعك صدرها
بصدري وهي تصرخ منومة : تعال معي . تعال لاتدعني
اذهب وحدي .

« وقلت لي : احبك - فصدفتها . وتلت لها : احبك
وكننت صادقاً . ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش السنة
من نيران الجحيم ورائحة الدخان اشبه بانفي وهي تقول لي :
احبك يا حبيبي ، وانا اقول لها احبك يا حبيبي . والكون
بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع في نقطة واحدة ليس قبلها
ولا بعدها شيء . »

دخبت لماء غاريّ تماماً كما ولدتني امي . احسنت برجمة
 اول ما لامست الماء البارد ، ثم تحولت الرحفة الى يقظه .
 النهر ليس ممثلاً كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيم التحاريق
 لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واعلقت باب الحوش
 دون ان افعل شيئاً . حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر تركته
 يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة . فكرت ان اذهب
 واقف على قهرها . فكرت ان ارمي المفتاح حيث لا يجده
 احد . ثم عدلت . اعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من
 القيام بعمل ما . وقادتني قدماي الى الشاطئ وقد لاحت
 تباشير الفجر في الشرق . سادس عن غيظي بالسباحة . كانت
 الاشياء على الشاطئين نصف واضحة ، تبين وتختفي ، بين النور
 والظلام . كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف ، متحركاً
 كأنه ساكن لا صوت غير دوي انهر وطفطقة مكبات الماء
 غير بعيد . واخذت سبع نحو الشاطئ الشمالي . وظلمت أسح
 واسبح حتى استقرت حر كات جسمي مع قوى الماء الى تناسق

مريح . لم اعد افكر وانا اتحرك الى الامام على سطح الماء
وقع ضربات ذراعي في الماء . وحركة ساقى ، وصوت زفيرى
بالنفس ، ودوي النهر ، وصوت المكنة تطلق على الشاطيء
لا اصوات غير ذلك . ومضيت اسبح واسبح وقد استقر
عزمى على بلوغ الشاطيء الشمالى . هذا هو الهدف . كان
الشاطيء امامى يملؤ ويهبط ، والاصوات تنقطع كلية ثم
تضج . وقليل قليلا لم اعد اسمع سوى دوي النهر . ثم اصبحت
كأنتى في بهو واسع تتجاوب اصداؤه . والشاطيء يملؤ ويهبط
ودوي النهر يغور ويطفو . كنت ارى امامى نصف دائرة .
ثم اصبحت بين العمى والبصر . كنت اعى ولا اعى . هل انا
نائم ام يقظان ؟ هل انا حي ام ميت ؟ ومع ذلك كنت ما
ازال مسكاً بخيط رفيع واهن : الاحساس بان الهدف امامى
لا تحنى ، واننى يجب ان اتحرك الى امام لا الى اسفل . لكن
الخيط وهن حتى كاد ينقطع ، ووصلت الى نقطة احسنت
فيها ان قوى النهر في القاع تشدني اليها . سرى الخدر فى ساقى
وفى ذراعى ، اتسع البهو وتسارع تجارب الاصدااء . الآن .
وفجأة ، وبقوة لا ادري من اين جاءتنى ، رفعت قامى في
الماء . سمعت دوي النهر وطقطة مكنة الماء . تلفت يمنة
ويسرة فاذا انا فى منتصف الطريق بين الشمال والجنوب . لن
استطيع المضي ولن استطيع العودة . انقلبت على ظهري وظللت
ساكناً احرك ذراعى وساقى بصعوبة بالقدر الذى يبقينى طافياً

على السطح . كنت احس بقوى النهر الهدامة تشدني الى اسفل
وبالتيار يدفعني الى الشاطئ . الجنوبي في زاوية منعنية . لن
استطيع ان احفظ توازني مدة طويلة . ان عاجلاً او آجلاً
ستشدني قوى النهر الى القاع . وفي حالة بين الحياة والموت
رأيت اسراباً من القطى متجهة شمالاً . هل نحن في موسم
الشتاء أو الصيف ؟ هل هي رحلة ام هجرة ؟ واحسست انني
استسلم لقوى النهر الهدامة . احسست بساقي تبحران بقية
جسمي الى اسفل . في لحظة لا ادري هل طالت ام قصرت
تحول دوي النهر الى ضوضاء مجلجلة ، وفي اللحظة عينها لمع
ضوء حاد كأنه لمع برق . ثم ساد الكون والظلام فترة لا
اعلم طولها ، بعدها لحت السماء تبعد وتقرب والشاطيء يعلو
ويهبط . واحسست فجأة برغبة جارفة الى سبجارة . لم تكن
مجرد رغبة . كانت جوعاً . كانت ظمأ . وقد كانت تلك
لحظة اليقظة من الكابوس استقرت السماء واستقر الشاطئ
وسمعت طقطقة مكنة الماء ، واحسست ببرودة الماء في
جسمي . كان ذهني قد صفا حينئذ ، وتحددت علاقتي بالنهر
انني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه فكرت انني
اذا مت في تلك اللحظة فانني اكون قد مت كما ولدت ، دون
ارادتي . طول حياتي لم اختر ولم اقرر . انني اقرر الآن انني
اختر الحياة . سأحيا لان ثمة اناس قليلين احب ان ابقى
معهم اطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب ان اؤديها

لا يعني ان كان للحياة معنى او لم يكن لها معنى . واذا
كنت لا تستطيع ان اغفر فحاول ان انسى . ساحيا بالقوة
والمكر . وحركت قدمي وذراعي بصعوبة وعنف حتى
صارت قامتي كلها فوق الماء . وبكل ما بقيت لي من طاقة
صرخت ، وكأنني ممثل هزلي يصبح في مسرح : « النجدة » .
النجدة .

انتهت

مؤلفات للكاتب صدرت عن «دار العود»

- عرس الزين رواية
- دومة ود حامد مجموعة قصص
- بندر شاه رواية
- المريود رواية
- الطيب صالح عبقرى الرواية العربية دراسات